مادة (ع ل م) في القرآن الكريم

دراسة في صورها البنائية ودلالاتها ومراتبها

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلمة بعدها مجموعة من الحروف الملفوظة، الَّتِي ينتجها جهاز نطقي خاص، مادة صوتية تقتضي وسطاً خارجياً تحرر من خلاله حتىٰ تصل إِلَىٰ محل منفعل بها، وبعدها وسيلة اتصال تخرج مستعملها من وحدته وفرادته إِلَىٰ ما به يتقوم وجوده وكيانه المتمثل بالضرورة الاجتماعية. وتشكل هذه العملية من أطراف مادية محسوسة تتمثل بالمرسل والمرسل اليه والرسالة، لا يعني أن ننظر إليها نظرة كلية مستقلة، لأن المذكور سالفاً هو العوارض والخصوصيات، كالأصوات والحنجرة والوسط والسمع وغيرها، لا المعنىٰ الحقيقي الذي يعرف من غايته وهو الفهم والافهام. وفي هذا الشأن يقول العلامة المصطفوي: (ان الأصل الواحد في المادة: هو إبراز ما في الباطن من الأفكار والمعنويات، بأي وسيلة كان)[1]. ومما لا شك فيه أن الحيثية المادية للغة، وأعني بها الخصوصيات الَّتِي ترافقها، والعوارض الَّتِي

---

١. التحقيق في كلمات القرآن ١٠ / ١١٩.

● ان هذا الطرح أدق مما قاله صاحب المقاييس في مادة (ك ل م) من انه ((يدل عَلَىٰ نطق مفهم))؛ إذ لا يمكن تطبيقه في مورد المعنويات والروحانيات المجردة.

تشخصها، والعوالم الَّتِي تتحرك بها، توهم كثيراً من القراء الَّذِينَ يتعاملون معها، فيلجون إِلَىٰ نصوصها وجملها بخزين معرفي يستند إِلَىٰ تجاربهم الضيقة وممارساتهم المحدودة، ومن ثم تكون معطياتهم ناقصة، وهذا ما حدا بالباحث أَن يسلط الضوء عَلَىٰ مادة لغوية من مواد النص القرآني مبيناً من جهة دور اللغة، وخصوصاً لغة القرآن في التكاثر والنمو، أي استعمال الأبنية المتعددة المترشحة من الأصل اللغوي، وما تقدمه هذه الأبنية من دلالات متعددة عَلَىٰ وفق المنظور القرآني، ومن جهة أخرىٰ يبين عمل القدرة الإلهية في إخراج هذا المعطىٰ الصوتي – الذي ينتمي إِلَىٰ حيثية المادة – بنحو كاشف عن مكنونات عالم الغيب والشهادة عَلَىٰ حد سواء.

فتطلق اللفظة، وفيها إشارتان إِلَىٰ عالم الغيب وعالم المادة، ومن ثم لا تقتصر الدائرة الكلامية عَلَىٰ أبناء النوع الإنساني، بل تتسع لتشمل الوجود الواجب والوجود الممكن قال تعالىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ﴾ إبراهيم/ ١.

ولا يقفز إِلَىٰ ذهن المتلقي أن هذه الدائرة أطرافها مادية بلحاظ طرفها الإنساني. نعم، إن الإنسان مادة بلحاظ كينونته بظرف الاجتماع، ووعاء الزمان لكنه بجهته السامية، وخلافته التكوينية موجود مجرد، اتخذ من بدنه وسيلة لتحركه في هذه

النَّشأة الدَّانية، ومن ثم فان الواجب«ﷻ» يخاطب المجرد القار في البدن المادي بمستويات متعددة بحسب اشتداد الجانب الروحي أو الجانب المادي فيه.

ومن ظهرت به هذه الحقيقة جلية، علم أن الخطابات القرآنية ليست عَلَىٰ سمت واحد، فتارة تطلق الألفاظ، ويراد بها الظاهر ومرة تطلق ويراد بها الباطن، وأخرىٰ تطلق ويراد بها باطن الباطن استناداً إِلَىٰ تعدد النشآت الَّتِي يتحرك فيها الإنسان[1].

وقد وقع الاختيار عَلَىٰ مادة (ع ل م)؛ نظراً لما لمبانيها من معان متعددة، ودلالات متنوعة، ولما لمعانيها من درجات متفاوتة..

وقد اقتضت الأهمية هذه تقسيم البحث عَلَىٰ ثلاثة محاور:

يقدم الباحث في المحور الأول المباني المتعددة لهذه المادة مبيناً خصوصية العالم من حيث الشخص والعدد والنوع.

● لما كان لهذا الوجود حيثيتان مجردة ومادية، تحرك، في ضوئها، باتجاهين: إما باتجاه روحه وباطنه، أي انه يشتد باتجاه عالم الغيب، وإما باتجاه غرائزه ونزواته، فيشتد إِلَىٰ المادة ويتثاقل إِلَىٰ الأرض.. وقد كان دأب القرآن تحريك الإنسان نحو كماله المنشود وغايته السامية، ويصرفه عن حب النساء والشهوات والقناطير المقنطرة.

● ان تلبس الروح بقفص المادة يجعلها محكومة بأحكامها، ومن ثم فان الركون إِلَىٰ هذه الجهة وإغفال الجانب المعنوي، يفضي إِلَىٰ الفهم السطحي، وهذا ما حدا ببعض العلماء إِلَىٰ جعله من موجبات ظهور التشابه في القرآن الكريم. ينظر الميزان ٣ / ٦٧ – ٧١.

١. ينظر: تفسير القرآن الكريم، صدر الدين الشيرازي ٦ / ٥٨.

وقد تحدث في المحور الثاني عن دلالة كل مبنىٰ من هذه المباني، مستعيناً بالسياق كثيراً في إبراز دلالة المبنىٰ وزمنه، وخصص الحديث في المحور الثالث عن مراتب هذه المادة في ظهورها اللفظي من حيث المعنىٰ، وقد ركز الباحث عَلَىٰ المباني الَّتِي فيها جنبة العلم، وأهمل المباني الأخرىٰ مثل العالمين والأعلام وغيرها؛ لأهمية الأول في نظر القرآن، وما تعطيه من أبعاد أخلاقية وعقدية وغيبية تجعل المتلقي يتعامل معها بترو وتدقيق، وخصوصاً في الموارد الَّتِي يكون الله «وَجَلَّ» هو المعلِّم.

المحور الأول

المباني المتعددة للمادة

في هذا المورد تبرز خصوصية اللغة الَّتِي تجعلها قادرة عَلَىٰ النمو والتحرك والتكاثر أكثر من غيرها من اللغات، والمدقق في المعجم، يجد أن مواده محدودة بخلاف مبانيه الكثيرة جداً، الَّتِي تنتمي إِلَىٰ الجذر نفسه.

ولم يشذ القرآن عن ذلك، فقد استخدم المواد اللغوية، ونوّع في مبانيها، بغية الوصول إِلَىٰ المطلب الأسنىٰ من تقرير حقائق كونية، أو إثبات قضايا عقدية، أو تبين أحكام شرعية، فجاءت مباني هذه المادة عَلَىٰ صور عدة يضمها حقلان دلاليان، الأول هو حقل الأفعال بما له من مشخصات ولوازم، والثاني حقل الأسماء، والنسبة بينهما غير متكافئة؛ لتضمن الأول جهات تصريفية كثيرة، وإن كان الاختلاف في بعضها حاصلاً بالمعلوم وبالبناء للمجهول أو في تقبل العلم وغيرها فضلاً عن المعطىٰ الدلالي الذي سيأتي لاحقاً.

الحقـــل الفعلـــي

عندما نلج إِلَىٰ الحقل الفعلي، سنجد أن مادته تتحرك في أفق فسيح، يغطي مساحة الوجود كلها، وما ذلك إلا لأن القرآن يعطيها فاعلية في النشآت الثلاثة، فتظهر نسبتها في العالم المادي والعالم غير المادي بقسميه، ولكن مع اختلاف في ظهور النوع والشخص والعدد، ولا يخفىٰ أن هذه النسبة إما أن يلاحظ فيها الحضور أو الخطاب أو الغيبة، أو يلاحظ فيها بُعد التذكير والتأنيث أو يلاحظ فيها المفرد والمثنىٰ والجمع، ولكل منهم خصوصيته، تقتضي عَلَىٰ وفقها المشيئة الإلهية نسبة هذا المفهوم إليه، والسياق يكشف عن هذه الجهات والخصوصيات، ومن الأمثلة القرآنية لنسبة هذا المفهوم إِلَىٰ الحيثيات:

١. علـــم

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ البقرة: ٢٣٥.

﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ البقرة: ٦٠

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ النور / ٤١.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا﴾ الجاثية / ٩.

هُزُوًا﴾

في الآيات المتقدمة نجد أن البناء استعمل للغائب لكن اختلف من جهتين: الأولى بالإفراد والجمع، ففي الأولى والرابعة استعمل للمفرد، وفي الثانية والثالثة استعمل للجمع. والثانية في خصوصية العالِم، ففي الآية الأولى، هو الله«ﷻ» المجرد الواجب«ﷻ»، وفي الثانية والرابعة هو الإنسان، وفي الثالثة هو الموجودات العاقلة وغير العاقلة.

٢ – علمتُ

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ .. ﴾ القصص / ٣٨.

أن ظهور التاء المتصلة المضمومة تعطي تصوراً آخر يتمثل بالحضور والافراد، ولا يشترط فيه النسبة إِلَى المذكر، لأن التذكير هنا يقدمه السياق في الآية، أي هو مفهوم من جهة الخطاب لا جهة المتكلم.

٣ – عَلِمتْ

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ الصافات / ١٥٨.

﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ التكوير / ١٤.

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ الانفطار / ٥.

أن مجيء تاء الاتصال ساكنة يحدد جهة الخطاب بالغيبة والتأنيث، ولا يشترط فيها الافراد، فقد ينظر إِلَى الجمع نظر الجماعة المؤنثة، لكن يبقى الاختلاف كائناً في حقيقة الجهة، ففي الآية الأولى نسب المفهوم إِلَى الجن، وفي الثانية إِلَى النفس، وشتان بين الاثنين.

٤ – عَلِمتَ

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ سورة هود / ٧٩.

لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ ﴾ سورة الأنبياء / ٦٥.

أن ظهور التاء المفتوحة مع البناء يعطيه خصوصية الخطاب والافراد والتذكير، أي أن الكلام للمخاطب المفرد المذكر.

٥ – علمتم

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ سورة البقرة/ ٦٥.

قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ سورة يوسف / ٨٩.

إن اتصال المبنى بهذا الضمير، يخصصه بجماعة الذكور المخاطبين.

٦ – علمنا

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ابْنَكَ سرقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ سورة يوسف / ٨١.

﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ سورة يوسف / ٥١.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ سورة ق / ٤.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ سورة الأحزاب / ٥٠.

إن هذا الضمير يشير إلى جماعة المتكلمين، سواء أكانوا من الذكور أم من الإناث وقد تحدثت الآية الأولى عن جماعة الذكور، والثانية عن جماعة الإناث، أما الآية الثالثة والرابعة، فقد تحدثتا عن المفرد•، وهذا عدول عن النمط المألوف، فجاءت

• قد يراد من الجمع الملائكة المدبرة شؤون الخلق بإذنه تعالى، ولا استقلال في العلم بين الاثنين ولا بينونة؛ لأنهم مظاهر مجردة له ﷻ، وكل ما يؤديه المظهر ليس له استقلال عن الظاهر. ينظر في شأن تدبير الملائكة التوحيد ٢ / ٣٧٥ وما بعدها.

في مورد الله «ﷻ»، لتعطي معنى التفخيم والتعظيم في الاستعمال.

٧ – علموا

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴾ سورة البقرة / ١٠٢.

﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ للهِّ ﴾ سورة القصص / ٧٥.

استعمل هذا البناءَ مع الضمير لجماعة الغائبين الذكور، واللافت للنظر أن هذا الضمير لم يأت في مورد الله «ﷻ»، كالضمير السابق الدال عَلَى الجمع، ولعل هذا يعود إِلَى أن قوة التعبير مع الحضور أبلغ في التفخيم والتعظيم من الغيبة.

٨ – أعلمُ

قال تعالى: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة / ١٠٢.

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ سورة المائدة / ١١٦.

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهّ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ سورة يوسف / ٢٦.

إن هذا المبنى يشير إِلَى الحضور المعبر عنه بالضمير ((أنا))، والافراد، سواء أكان المفرد الحاضر مذكراً أم مؤنثاً، وإذا كان الاستعمال القرآني يؤثر المذكر في الاستعمال فهذا لا يعني سلبه

عن المؤنث في غير القرآن.

٩ – تَعْلَمَ

قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ سورة البقرة / ١٠٦

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ سورة السجدة / ١٧

يستعمل هذا البناء في مورد المخاطب المذكر المفرد المعبر عنه بالضمير ((أنت)).

١٠ – تعلمون

قال تعالىٰ: ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة / ٢٢.

﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة / ٨٠ .

﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ سورة الواقعة / ٧٦.

يستعمل هذا البناء مع الضمير المتصل لجماعة المخاطبين الذكور.

١١ – نعلم

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ... ﴾ سورة البقرة / ١٤٣.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ سورة الكهف / ١٢.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ سورة الحجر / ٩٧.

﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ سورة المائدة/ ١١٣.

﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ سورة آل عمران / ١٦٧.

يستعمل هذا البناء في مورد جماعة المتكلمين أي: الحضور، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، وقد استعمل في مورد جماعة المتكلمين الذكور في آيتين فقط، آية سورة المائدة وآية سورة آل عمران، والآيات الأخرىٰ استعملت في مورد الله«وَعَجَّلَ»، وهنا عدول عن النمط المألوف أيضاً.

١٢ – يعلم

قال تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ سورة النحل / ٣٩.

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سورة الأنبياء / ٣٩.

﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ سورة البقرة / ٧٧.

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ سورة البقرة / ٢٢.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ سورة آل عمران / ٧.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ سورة الرعد / ٤٢.

يستعمل هذا البناء للمفرد المذكر الغائب، وهو يتفق مع بناء علم من هذه الجهة لكنه يختلف عنه بالدلالة والزمن. وقد يستعمل للجمع أيضاً كما في الآية الأولى والثانية، وهو يختلف عن بناء يعلمون في الفاعل، ففي الأول جاء اسماً ظاهراً وفي الثاني ضميراً متصلاً.

١٣ – يعلمون

قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة / ١٣.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ سورة البقرة / ٧٨.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الروم / ٦.

يستعمل هذا البناء في مورد جماعة الذكور الغائبين، وهو يتفق

من هذه الجهة مع بناء علموا.

١٤ – اعلمْ

قال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ سورة محمد / ١٩.

﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ سورة البقرة / ٢٦٠.

يستعمل هذا البناء في مورد الفرد المخاطب المذكر، وهو يتفق من هذه الجهة مع بناء تعلم وعلمت، ويختلف عنهما في الدلالة والزمن والأسلوب الذي ينتمي إليه.

١٥ – اعلموا

قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ سورة البقرة / ١٩٤.

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ سورة البقرة / ٢٣٥.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ سورة الحديد / ١٧.

يستعمل هذا البناء في مورد جماعة الذكور المخاطبين، وهو يتحد مع بناء تعلمون وعلمتم من هذه الجهة، ويختلف عنه من جهات أخرى.

وفي ضمن هذه اللحاظات استعمل الفعل المضارع المبني

للمجهول (يُعلم) في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن.. ﴾سورة النور / ٣١، للمفرد المذكر الغائب، وقد يدل عَلَى الجمع والسياق في السورة يساعد عليه واستعمل المضعف المزيد فعّل.

١ – عَلّمتك

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ ﴾ سورة المائدة / ١١٠.

والمبني للمفرد المذكر الحاضر.

٢ – علّمتم

قال تعالى: ﴿ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ ﴾ سورة المائدة / ٤.

والمبنى لجماعة الذكور المخاطبين.

٣ – علّمتك

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ النساء / ١١٣.

﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ سورة طه / ٧١.

يستعمل هذا المبنى للمفرد المذكر الغائب، وقد استعمل

الأول في مورد الله «ﷻ» والثاني في مورد الإنسان.

٤ – علـّمنـّاه

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ... ﴾ سورة يوسف / ٦٨.

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ سورة الكهف / ٦٥.

يستعمل هذا البناء لجماعة الذكور المتكلمين، وقد يستعمل لجماعة الإناث، وهو في القرآن الكريم، استعمل في مورد الله «ﷻ».

٥ – تعلـّمن

قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ.. ﴾ الكهف / ٦٦.

استعمل هذا البناء للمفرد المذكر المخاطب.

٦ – تعلمون

قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ.. ﴾ سورة آل عمران / ٧٩.

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ.. ﴾ سورة الحجرات / ١٦.

يستعمل هذا المبنى لجماعة الذكور المخاطبين.

٧ – نـُعلـّم

قال تعالى: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ سورة يوسف / ٢١.

استعمل هذا البناء لجماعة المتكلمين، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، وفي القرآن الكريم لم يستعمل الا في مورد الله «وَجَلَّ»، وهو استعمال يشعر بالتعظيم.

٨ – يعلمان

قال تعالى: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾ سورة البقرة / ١٠٢.

يستعمل هذا البناء للغائب المذكر المثنى.

٩ – يعلّم

قال تعالى: ﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ.. ﴾ سورة البقرة / ١٥١.

﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة / ١٥١.

﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ ﴾ سورة البقرة / ٢٨٢.

يستعمل هذا المبنى للمفرد المذكر الغائب، وقد يستعمل في غير القرآن الكريم للجمع، إذا كان الفاعل اسماً صريحاً.

١٠ – يعلّمون

قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الشياطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ.. ﴾ سورة البقرة / ١٠٢.

يستعمل هذا البناء لجماعة الذكور الغائبين.

وفي ضمن هذه السياقات استعمل المبني للمجهول في آيات ثلاثة:

قال تعالى: ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ.. ﴾ سورة الأنعام / ٩١.

﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ سورة الكهف / ٦٦.

﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ سورة النمل / ١٦.

١١ – يتعلّمون

قال تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ سورة البقرة / ١٠٢.

﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضرهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ سورة البقرة / ١٠٢.

وقد استعمل هذا البناء المزيد بحرفين لجماعة الذكور الغائبين.

ومما تقدم يتبين أن القرآن استعمل من هذه المادة الفعل المجرد، بأقسامه الثلاثة،والمزيد بحرف، والمزيد بحرفين، وقد تواردت عليهما مقولات صرفية محددة، فلم يستعمل المثنى

المذكر الغائب ((يَعْلَمَان))، والمثنى المذكر المخاطب ((تَعْلَمان)) من الفعل المضارع، ولا من الفعل الماضي ((علما)) و ((علمتما))، ولا من فعل الأمر ((أعلما)). ولم يأت هذا البناء مع المؤنث إلا في مورد واحد، وهو الجمع الذي يشترك فيه جماعة الذكور والإناث ((علمنا)).

ولعل السر في الأول أن البيانات القرآنية لا تسلط الضوء عَلَىٰ شخصين يشتركان بالحدث نفسه، وخصوصاً في مفهوم العلم، بل يتناول الشخصية المفردة من حيث خطرها وأهميتها كالأنبياء مثلاً أو ذكر المتمردين وفرعون وغيره أو الجماعة الَّذِينَ هم أهل للمدح والثناء كالراسخين في العلم أو الَّذِينَ يشهدون لله بالإلوهية، والذين هم في منأىٰ من ذلك كالذين لا يعلمون. نعم، قد يحتاج السياق إِلَىٰ ذكر الاثنين معاً كما في سورة البقرة وقصة هارون وماروت، فلما كان السبب في تعليم الناس السحر، وما أفضىٰ هذا التعليم من افتتان الناس، صرح بنسبة التعليم إليهما، وصورة المبنىٰ تختلف كما ترىٰ.

والسر في الثاني مرجعه خصوصية العلم والمعلوم، فليس لهذا المفهوم المجرد شأن كبير – من حيث المعطيات القرآنية – في وجود المرأة؛ لأن الله «عَزَّوَجَلَّ» قد ركبها تركيباً أنثوياً، وأعطاها وظائف ملائمة تنسجم وطبيعتها، فلا غرو أن يكون الجانب العاطفي فيها يغلب عَلَىٰ غيره، وفي حرمانها بعض الوظائف

الإلهية المهمة كالخلافة والرسالة والقضاء والرياسة، وغيرها من الأمور الَّتِي تتطلب حزماً وتعقلاً كبيرين، تأكيد لذلك. ومن جهة أخرىٰ فان متعلق العلم تارة يكون مرتبطاً بطبيعة الإنسان المادية، وما يحتاج إليه في تقويم حياته، وتارة يكون أمراً عقدياً أو أخلاقياً أو قانونياً، وفي كلا الأمرين تختلف النظرة القرآنية، ففي الأول تغيب النظرة القرآنية، أو يكون تسليط الضوء عليها هامشياً؛ لأن فطرة التكوين تقتضي ذلك، وفي الثاني تصبح النظرة القرآنية مهمة؛ لأنه يصبح جزءاً من منظومة الإنسان والمجتمع في الإصلاح والتربية، وليس سوىٰ الرجال من يقوم بهذا العمل التغييري في سبيل غرس القيم وانتاج المودة والمحبة والوئام، والمرأة في ذلك تقع تحت ولاية الرجل (الزوج) وقد يكون لها دور ثانوي في العمل والإصلاح، لذلك لم تكن الموضوع الأساسي للقرآن إلا في موارد تكون النظرة إليها باستقلال مثل خيانة بعض نساء الأنبياء، وقصة امرأة العزيز وغيرها، فضلاً عن خصوصياتها كالطلاق والرضاعة والإرث.

وقد قل استعمال المضعف، وهذا الأمر طبيعي، لأنه مما يقتضي طرفين معلم ومتعلم، وقد حصل التعليم في الغالب من الله«وَجَلَّ» أو من هو متعلم من الله إِلَىٰ المقربين منه كالأنبياء والمرسلين والأولياء، أو المتعلمين من المقربين، وفيما عدا ذلك أسند التعليم إِلَىٰ الشياطين كما في سورة البقرة وأسند إِلَىٰ

الأعراب عَلَىٰ نحو التوبيخ لهم عندما قالوا: (امنا) كما في سورة الحجرات. وأقل من ذلك الاستعمال للمبني للمجهول في أربع آيات.

- الحقل الاسمي

إن تشكيل البناء الاسمي من الجذر(ع ل م) أقل في الاستعمال من البناء الفعلي في القرآن الكريم، ومن هذه الأبنية:

١ – عالِم

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَّ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ سورة فاطر / ٣٨.

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ ﴾ سورة الزمر / ٤٦.

إن هذا البناء هو اسم الفاعل المشتق من الثلاثي المجرد ((علم)) وهو لم يستعمل في غير مورد الله «وَجَلَّ».

٢ – عالمون

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ العنكبوت / ٤٣.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ سورة الأنبياء / ٥١.

﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شيءٍ عَالِمِينَ ﴾ سورة الأنبياء / ٨١.

يستعمل هـذا البناء مع اللاحقة (ي ن) أو (ون) لجمع المذكر العاقل كما في الآية الأولى. وقـد يخـرج هـذا الأمـر عـن رتابتـه، فيستعمل في مورد الله «ﷻ»، كما في الآية الثانية والثالثة.

٣ – علمـــاء

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَـمَاء ﴾ سـورة فـاطر / ٢٨.

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُـمْ آيَـةً أَن يَعْلَمَـهُ عُلَـمَاء بَنِـي إِسـرائِيلَ ﴾ سـورة الشعراء / ١٩٧.

يتغير هذا البناء عن سـابقه، وإن كـان الاثنـان لجمـع المـذكر العاقل، في الدلالة والأسلوب، إذ يحتاج الأول إِلَى متعلق كـما في الآيات المتقدمة، ولا يحتاج الثاني إليه.

٤ – معلوم

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ سورة الحجر / ٤.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ سورة الحجر / ٢١.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ سورة الصافات / ١٦٤ .

معلوم صيغتهـا مفعـول، وهـو اسـم مفعـول مشـتق مـن

الثلاثي، وهي تستعمل للمفرد المذكر.

٥ – معلومات

قال تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ سورة البقرة / ١٩٧.

﴿... فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ سورة الحج / ٢٨.

معلومات هي جمع مؤنث سالم لاسم المفعول معلومة المأخوذة من الجذر الثلاثي.

٦ – مُعلم

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ سورة الدخان / ١٤.

إن هذا البناء هو اسم المفعول المأخوذ من الثلاثي المضعف علّم، وهو للمفرد المذكر.

٧ – أعلم

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ... ﴾ سورة البقرة / ١٤٠.

﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ سورة الكهف / ٢٦.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ.. ﴾ سورة الإسراء / ٤٧.

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ سورة العنكبوت / ٣٢.

أعلم من أبنية المشتقات المأخوذة من الثلاثي، وهو اسم

تفضيل استعمل مع المفرد والجمع• في القرآن الكريم، سواء أكان في مورد الملائكة كما في الآية الأخيرة أم في مورد الله «ﷻ» كما في الآية الثانية والثالثة.

٨ – عليم

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَّ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة البقرة / ١١٥.

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة يوسف / ٥٥.

﴿ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشرك بِغُلام عَلِيم ﴾ سورة الحجر / ٥٣.

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة الشعراء / ٣٤.

إن هذا البناء من صيغ المبالغة المأخوذ من الفعل الثلاثي علم، وهو يستعمل للمفرد والمذكر، وقد يطلق عَلَىٰ غير الله «ﷻ» كما في الآيات المتقدمة.

٩ – علام

قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ سورة المائدة / ١٠٩.

﴿ وَأَنَّ اللهَّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ سورة التوبة / ٧٨.

• إذا جاء اسم التفضيل مجرداً من ال والإضافة، لازم حالة واحدة، سواء أكان المستعمل معه مفرداً أم جمعاً. ينظر: أوضح المسالك ٢ / ٢٩٤.

يتحد هذا البناء مع البناء السابق في الاشتقاق لكن يختلف عنه في البناء وشدة المبالغة وعدم إطلاقه – في القرآن – عَلَىٰ غير الله «وَعَزَّ وَجَلَّ».

١٠ – العلم

قال تعالىٰ: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ..﴾ سورة آل عمران / ٧.

﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ سورة النساء / ١٥٧ .

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ سورة النمل / ٤٠.

إن هذا البناء هو اسم معنىٰ مأخوذ من الجذر الثلاثي (ع ل م).

وهناك مبانٍ لم نذكرها في البحث، لأنها خارجة عن حيز هذا المفهوم.

المحـــور الثاني

دلالـــــة الأبنيـــــــــة

١ – الأبنية الفعلية

إذا كان الزمان فرعاً للحركـة، ولازمـاً مـن لوازمهـا، فمـن المحال أن يتحقق زمان من دون حركة؛ لأن الحركة تعني التغيير التدريجي[1]، وهذا يعنـي أن الـزمن المفهـوم مـن تلـبس الصـيغ الفعلية مترتب عَلَىٰ مـا لهـا مـن حـدث، وتغـير تـدريجي، وهمـا متلازمان.

وقد أشار ابن يعيش إِلَىٰ هذا بقوله:

" لما كانت الأفعال مساوقة للزمـان والزمـان مـن مقومـات الأفعال توجد عند وجوده وتنعدم عند عدمه، انقسمت بأقسـام الزمان)[2].

وقد جعل د. إبراهيم السامرائي إعراب الفعـل عـن الزمـان أمراً بديهياً[3].

إذاً، ما تفرزه لنا الدراسات اللغوية والبلاغية من كون دلالـة الفعل عَلَىٰ الحدث والتجدد أمراً مؤكداً وصـريحاً.

---

١. ينظر: المنهج الجديد في تعليم الفلسفة ٢ / ٢٨٥، ٢٩٤.

٢. شـرح المفصل ٧ / ٤.

٣. ينظر: الفعل زمانه وأبنيته ٢٣.

ولكن قبل البدء – قد تبرز لنا مشكلة مفادها:

إن التغيير والتدرج والزمن الذي يرافقها يفهم من نظام العالم المادي، أما الموجودات غير المادية، فليس لها ذلك. ومن ثم فالأحرىٰ بالمحلل أن تكون حركته وئيدة لمعالجة البيانات القرآنية، لأنها في الغالب تكسر النسق المعرفي الرتيب، وستتبدد المشكلة إذا ما علمنا أن الألبسة اللفظية طارئة عَلَىٰ الحقيقة القرآنية العالية النازلة من عالم الغيب، وانها، لفرط تجردها، تضيق بها العبارة فتظهر فكرة التشابه والتأويل الَّتِي يجد معها القارئ عنتاً شديداً لفهمها وتقبلها...

أ. فعل ودلالته

قال تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ هود / ٧٩.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلَهٍ.. ﴾ القصص / ٣٨.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرونَ ﴾ الصافات / ١٥٨.

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ... ﴾ الانفطار / ٥.

﴿ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ... ﴾ البقرة / ١٨٧.

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ الأنفال / ٦٦.

الأمثلة المتقدمة صورتها البنائية (فَعِلَ) الَّتِي تدل في أعراف اللغويين والنحاة – عَلَىٰ الحدث والزمن الماضي، ولكننا لا نستطيع أن نقسر هذين الأمرين عَلَىٰ المفردة القرآنية؛ لأن للمنتج شأنه، وللموضوع خصوصياته، وللمقام أحواله، وما تقدم من الآيات لا تجري عَلَىٰ سمت واحد، ولا تقع عَلَىٰ نمط لازم، بل هي آيات روعي فيها البعد الغيبي المجرد والبعد المادي المشهود.

فالآية الأولىٰ تدل عَلَىٰ الحدث المقترن في الذاكرة الماضية الحاصل لنبي الله لوط «عليه السلام»، وحصول العلم للبنىٰ يرجع إِلَىٰ الزمن الماضي أثر السلوك المنحرف غير القويم الذي اتخذه هؤلاء القوم.

والآية الثانية تنبئ عن نشاط فرعون في استخفاف عقول قومه منذ القدم، فليس هذا الحدث وليد لحظة الحال، بل هو بذرة غرست في زمن غابر، عهد عليها آباءه وأجداده، لذلك أرجع هذا الحدث (المعتقد) إِلَىٰ أصول قديمة، وكأنه حدث مسلم به، تتزعزع معتقدات من أنكره أو رفضه.

وإذا ما انتقلنا إِلَىٰ الآية الثالثة، فسنجد أن الآية تتحدث عن قول المشركين في جعل النسب بين الله وبين الجنة، وهي أحداث غابرة وقعت في زمن ماضٍ، والجنة متيقنة من حضور المشركين

(أصحاب هذا القول) النار[1].

والتعبير بالفعل الماضي مع تيقنهم يكشف عن جمال الاختيار ودقة التعبير، لأنه يصبح عندئذ بمنزلة الكائن لا محالة، ولا يخفى أن هذا لا يكون إلا إذا كان المعلوم مشهوداً، وإذا ما تلبس هذا المشهود ثوب الحدث الدال عَلَى الزمن الماضي، زاد التيقن والتأكيد والمبالغة في بطلان قول هؤلاء المشركين.

ولا تختلف الآية الرابعة كثيراً عن الآية السابقة؛ لأن موضوعها هو يوم القيامة، وما يحدث فيه من أهوال ومصاعب ومحن، ولما كان الارتباط بين الحياتين وثيقاً جداً، وأن الأعمال الَّتِي تنجز في الأولى سيكون لها رصيد من الوثاقة في الآخرة، استدعى الحديث آنذاك أن يستحضر كل الأعمال الَّتِي كانت غائبة في ذاكرة الحياة الأولى، في الحياة الثانية؛ من اجل أن تقف كل نفس عَلَى ما عملت من خير أو شر.

وبذلك يقرب القرآن المطلب ويقرره في ذهن السامع أكثر عندما عبر عن الحدث في تلك النشأة بالزمن الماضي، لأنه سينتقل بالمتلقي إِلَى الزمن المنصرم للحدث، وهذا يعني أن الحدث وقع وتحقق لكي يتم توجيه الذهن اليه، وفي هذه الآية يقول الطاهر بن عاشور: " ومعنى (علمت نفس ما أحضرت) حصول اليقين بما لم يكن لها به علم من حقائق الأعمال الَّتِي كان

---

١. ينظر: التحرير والتنوير ٢٣ / ٩٥.

عملها بها أشتاتاً، بعضه معلوم عَلَىٰ غير وجه، وبعضه معلوم صورته مجهول عواقبه، وبعضه مغفول عنه. فنزل العلم الذي كان حاصلاً للناس في الحياة الدنيا منزلة عدم العلم. وأثبت العلم لهم في ذلك اليوم علم أعمالهم من خير أو شر فيعلم ما لم يكن له به علم عما يحقره من أعماله ويتذكر ما كان قد علمه من قبل، وتذكر المنسي والمغفول عنه نوع من العلم"[1].

ولا يخفىٰ أن تقرير العلم بهذا النحو يدل عَلَىٰ شرافته، وعلو تلك النشأة، وخصوصاً عندما أسند العلم إِلَىٰ النفس، لأن النفوس كلها – هناك – تصبح مدركة عالمة، لا يخفىٰ عليها شيء مما كان في الحياة الدنيا، فكل موانع العلم، وحجب المادة، والتحولات والتغيرات تتلاشىٰ وتندثر، وتتجلىٰ الحقيقة واضحة بيّنة.

ولو توسعت الخطىٰ، ودقق النظر، لوجدنا أنفسنا أمام مفارقة كبيرة في الأحداث الَّتِي تعطيها الأبنية، وخصوصاً الآيتين الأخيرتين؛ لأن تعاملنا مع عالم الألفاظ شيء، وما عليه الهوية الغيبية أمر آخر، لا ينسجم كلياً مع ما تصوره لنا مجموعة حروف منتظمة تنشأ بدافع الحاجة..

وليس من المستبعد أن يطلق العنان للخيال في تصور مفهوم العلم، واتصاف الهوية الغيبية به من منظور مادي – تغيب

---

١. ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ١٣٤.

الأشياء وتُجهل، ثم يدرك بعد تتبع وممارسة – فيقال: أ لله علم كعلمنا أم أن له علماً يغاير علمنا؟

وهل يصح نسبة هذا الحدث إليه؟

أي انه يعلم فيما مضىٰ، أو انه لم يعلم ثم علم.

وهل يصح الزمان الماضي والحال والمستقبل بالنسبة إليه؟

وإذا كان الزمان من خلقه، فلماذا يتلبس البناء هذه الصورة.

إن الآية الَّتِي تقيد الحدث في الزمن الماضي في موضوع الصوم، ينظر إليه من جهة العلم الإلهي المطلق الذي لا يعزب عنه شيء، ولما كان الخطاب موجهاً إِلَىٰ هذه الشريحة الَّتِي حصل لها تلكؤ في أداء الواجبات، أيقظ غفوتهم بالإشارة إِلَىٰ أن ما طمحت به أنفسهم وتغيرت به حالهم كائن في علم أزلي محفوظ، فمكان ظهور الحدث من هذه الجهة مرتبط بالماضي.

أما بناء هذا الحدث في سورة الأنفال فلا يختلف، من حيث الاستعمال عما سبق، ولكن لما كان اقتران الظرف الدال عَلَىٰ الحال مع الحدث الماضي للبناء الفعلي في مجال تشريحي[1] أو تربوي قريب من التشريح[2]، أخذ بعداً عقدياً، وبمعنىٰ، أيكون علم الله حادثاً بعد ظهور ضعف المؤمنين أم إن علم الله أزلي

---

١. ينظر: البيان في تفسير القرآن ٣٧٣، تفسير أبي المسعود ٤ / ٣٥، التحرير والتنوير ٩ / ١٥٧.

٢. ينظر: الميزان ٩ / ١٢٣، البيان ٣٧٣ – ٣٧٤.

بضعف هؤلاء.

إن تحريض المؤمنين عَلَىٰ القتال، والضعف الـذي أشـرب في قلوبهم بعد المزاولة والتحقق هو في عين العلـم الإلهـي الـذي لا يغيب عنه شـيء.

ولما كان الملاك هو معرفة ما تظهـر عليه النفس الإنسانية مـن نوازع وميول ومؤثرات في عالم الفعل بعـد المزاولـة، أقتضىٰ ـ أن يكون العلم في هذه الآية منظوراً إليه مـن لحـاظ الفعـل لا مـن لحاظ الذات، ولا يخفىٰ ان الإنسـان ومـا يؤديـه في هـذا الكـون الفسيح من ظواهر، هو فعـل الله المـتقن الـذي لا تفـاوت فيـه، وليس من المستبعد أن يكون لهذا الفعل، وهو يتغير عَلَىٰ الدوام، علمه الخاص بـه؛ لمصـالح تقتضـي ذلـك، وفي الآيـة المتقدمـة تغيرت حالة المؤمنين، وظهرت فـيهم النـوازع، وتحكمـت فيهـا المؤثرات، فتبين علم لهذا الفعل، لم يكـن ظـاهراً في عـالم الفعـل الإلهي بعد، أي: تفصيلاً، وفي هذا يقـول كـمال الحيـدري: " ان مثل هذا العلم لا يمكن أن يكـون ذاتيـاً لأنـه حـادث، والعلـم الذاتي عين الذات قديم بقدمها "[1] ولم يرتض ابن عاشور ذلك، فعد العلم هنا، علماً ذاتياً، والجملة حالية، لكيَ لا يلزمه العطف حدوث العلم الإلهي[2]، وقد ذكر الـرازي مسـلك المتكلمـين في

---

١. التوحيد ١ / ٢٧٠.

٢. ينظر: التحرير والتنوير ٩ / ١٥٧.

توجيه الآية القرآنية، وهو "انه تعالىٰ قبل حدوث الشيء لا يعلمه حاصلاً واقعاً، بل يعلم منه انه سيحدث، أما عند حدوثه ووقوعه فانه يعلمه حادثاً واقعاً"[1].

أما ذيل كلام المتكلمين فيكشف عن العلم الفعلي؛ لأن هذا النوع من العلم لا يكون إلا بعد تحقق المعلوم خارجاً، وهو عين ما ذكر في العلم الفعلي لله (عزّ وجلّ).

ب. يفعل ودلالته

بعد أن ذكرنا الفعل الماضي، أي بناء فعل، نأخذ البناء الآخر للفعل المسمىٰ بالمضارع ونبين ما يعطيه من دلالات ومعان.

قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة / ٣٠.

﴿ وَاللّهُ أَخْرَجَكُم من بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ سورة النحل / ٧٨.

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ سورة الأنعام / ٥٩.

﴿ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ ﴾ سورة يونس / ١٨.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ.. ﴾ سورة محمد / ٣١.

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ ﴾ سورة البقرة /

---

١. التفسير الكبير ٥ / ٥٠٧.

في الآيات المتقدمة البناء الفعلي الثاني الذي يحمل معنى الحدث والزمن الحاضر ما لم تصرفه القرائن الخارجية والداخلية، وهو يختلف دلالياً بحسب طبيعة السياق والأسلوب الذي يتشكل معه.

ففي المجموعة الأولى انضم الحدث مع أسلوب النفي، ليدل عَلَى أن هذا الحدث المرتبط غير ثابت للذات، والمنفي بطبيعته – يتفاوت بحسب استعمال الأداة، ومن ثم يتغير معطى الحدث تبعاً للأداة عَلَى النحو الآتي:

يخاطب الله ملائكته – بعد أن قدموا مقترحاً بشأن الخلافة، يتضمن المقارنة بين من يصدر منه الفساد، وسفك الدماء، وبين من يصدر منه التسبيح والتقديس – وينفي عنهم العلم (حدث المبنى) الباعث عَلَى المقترح والداعي إِلَى المفاضلة... وقد ظهر النفي بالأداة ((لا)) الَّتِي تصلح للمستقبل[١] ومطلق الزمن[٢]، سواء أكان للماضي أم للحاضر أم للمستقبل، فقيدت الحدث تبعاً لمقتضى السياق بالزمن العرفي الذي يظهر بالماضي والحاضر والمستقبل. ويتلبس بالبناء اللفظي، وهذا يعني إن التعامل مع المجرد لا يكون إلا بالتمثيل

---

١. ينظر: الأدوات النحوية في كتب التفسير ٦٠٩.

٢. أساليب النفي في القرآن ٢٤.

اللفظي والتقريب الذهني، لبعد الرتبة المجردة من المتعلقين بالمادة المتحركين في ظرفها، فلا غرو، إذاً، من تمثيل المحاورة تمثيلاً، فجعل العلم المنفي من الملائكة يتجدد ويستمر، لأن التفاوت قائم، بل ليس له وجه، وأنىٰ للملائكة أن تعلم شيئاً باستقلال نفسها وأعمال أدواتها.. إن علمها فيض من حكيم، ورشحة من عليم.

وفي الآية الثانية استعمل البناء ((تفعلون)) المنفي بالأداة ((لا)) ليدل عَلَىٰ ان حدث هذا البناء منصرف عنهم كلياً، وليس لهم سبيل إلا بالجعل الإلهي للأدوات المعدة، والوسائل المهيأة الَّتِي يتدرج معها الحدث شيئاً فشيئاً. والحدث المنفي هنا هو الاكتسابي لا الإلهامي أو اللدني.

وفي الآية الثالثة اقترن الحدث بالأسلوب المركب من الأداتين (لا و الا) ليفيد معنىٰ التأكيد وانحصار العلم به(عَزَّ وَجَلَّ).

وفي الآية الرابعة اقترن الحدث المنسوب إِلَىٰ الله(عَزَّ وَجَلَّ) بأداة النفي (لا)، ليصرف الحدث نفسه عن الله(عَزَّ وَجَلَّ) عَلَىٰ نحو الإطلاق الذي يشمل الماضي والحاضر والمستقبل، وقد جاء هذا النفي من كلام الله(عَزَّ وَجَلَّ) في سياق إدعاء المشركين شفاعة الآلهة – الَّتِي يعبدونها – عند الله.

والمتبادر إِلَىٰ الذهن من ظهور الآية أن هناك موارد لا يتعلق بها علم الله(عَزَّ وَجَلَّ)، ومنها ما أكدته هذه الآية، لكن نفي

الحدث هنا يدور مدار الوجود، فلو كان موجوداً لعلمه الله، ولكنه أدعاء محض وافتراء، فما لا يعلمه الله لا تحقق له ولم يتعلق به علم[1].

وقد خرجه بعض الاعلام عَلَىٰ نحو الكناية عندما قال: " نفي العلم بوجود الشفعاء كناية عن نفي وجودها "[2]، وذكر أيضاً: " إن الشفاعة إنما تتحقق إذا كان المشفوع عنده عالماً بوجود الشافع وشفاعته فإذا فرض انه لا يعلم بالشفعاء فكيف تتحقق الشفاعة عنده وهو لا يعلم "[3].

وإذا ما انتقلنا إِلَىٰ الآيتين الأخيرتين، فأننا نجد المبنىٰ المستعمل فيها يدل بصورته عَلَىٰ الزمن الحاضر، ولكن نصب الفعل مع لام الجر الَّتِي تضمر معها ((أن)) صرفه للمستقبل، والحدث الذي يعطيه المبنىٰ يكشف عن تعلق العلم بالمتغير، وتوقف العلم عَلَىٰ تحقق المعلوم في الواقع الخارجي، وهو غير العلم الذاتي الذي يتعلق بكل شيء. ولما كان الفعل متغيراً، وقد تعلق به، أصبح العلم – هنا – فعلياً، لأنه متوقف عَلَىٰ تحقق الأفعال الخارجية.

وقد علق السيد المرتضىٰ العلم عَلَىٰ الوجود؛ لأن قبل وجود

---

١. ينظر: روح المعاني ١١ / ١٩، وينظر تفسير القرطبي ١٠ / ٤٧.
٢. الميزان ١٠ / ٣١، وينظر التحرير والتنوير ١١ / ٤٦.
٣. الميزان ١٠ / ٣١.

الجهاد لا يعلم الجهاد موجوداً، وإنما يعلم كذلك بعد حصوله[1]، وعده أبو السعود علماً فعلياً يتعلق به الجزاء[2].

وقد أصر الطباطبائي عَلَىٰ أن المراد بالعلم هنا العلم الفعلي " وهو ظهور الشيء وحضوره بوجوده الخاص عند الله "[3].

ومن المفسرين من حملها عَلَىٰ المجاز[4] أو الظهور[5].

وفي الآية الأخرىٰ يقول الزجاج: " إن الله يعلم من يتبع الرسل ممن لا يتبعه من قبل وقوعه وذلك العلم لا تجب به مجازاة في ثواب ولا عقاب، ولكن المعنىٰ ليعلم ذلك منهم شهادة فيقع عليهم بذلك العلم اسم مطيعين واسم عاصين فيجب ثوابهم عَلَىٰ قدر عملهم ويكون معلوم ما في حال وقوع الفعل منهم علم شهادة كما قال «ﷻ»: (عالم الغيب والشهادة) فعلمه به قبل وقوعه علم غيب، وعلمه به في حال وقوعه شهادة، وكل ما علمه الله شهادة فقد كان معلوماً عنده غيباً لأنه يعلمه قبل كونه[6].

---

١. ينظر: مجمع البحرين ١ / ٣٦.

٢. ينظر: تفسير أبي السعود ٨ / ١٠١ وينظر التحرير والتنوير ٢٦ / ١٠٤.

٣. الميزان ١٣ / ٢٤٦.

٤. ينظر: تفسير الآلوسي ١٥ / ٢٧٢.

٥. ينظر: التحرير والتنوير ١٥ / ٢٨.

٦. معاني القرآن وإعرابه ١ / ١٩٤، وينظر مثله: إعراب القرآن الكريم وبيانه ٤ / ٤٤٧.

وهذا الكلام يكشف عن نحوين من العلم، الأول يحيط بكل شيء، وهو المسمى بالذاتي، والثاني لا يحيط بكل شيء، بل يتعلق بوقوع الأشياء مما يترتب عليه ثواب أو عقاب. ولم يختلف توجيه الآية عند الطباطبائي عن الآية السابقة، فقد عده علماً فعلياً[1] في حين ذكر المفسرون[2] أوجهاً عدة خشية أن ينصرف الذهن إِلَىٰ حدوث العلم، ولم يذكروا العلم الفعلي حتى الطاهر بن عاشور[3] عَلَىٰ الرغم من جعله متعلقاً بوقوع الشيء، أي تعلق العلم بوقوع الشيء الخارجي، لم يعده علماً فعلياً في مقابل العلم الذاتي، وهو شاهد عَلَىٰ أن هذا النحو من العلم يختلف عن كثير مما في الأديان الَّتِي تنسب العلم إِلَىٰ الله «عَزَّوَجَلَّ»، لأنه يتعلق بوقوع الأشياء. والذي يبدو لي أن ظهور جملة من الآيات صريحة في نسبة العلم إِلَىٰ الله «عَزَّوَجَلَّ» بصورة بناء فعلي يتوقف زمن تحققه عَلَىٰ وقوع الشيء الخارجي، يجعله قسماً آخر من العلم، والاختلاف بينهما كائن في مقام الذات والفعل، فالذي يتعلق بالفعل بعد وقوعه هو دون العلم الذاتي الذي لا يعزب عنه شيء، ولا بينونة بين العلمين؛ لأن الثاني يتعلق بفعل الله الذي هو مخلوق له، والأول هو علم الله عَلَىٰ الإطلاق،

---

١. ينظر: الميزان ١ / ٣٣٤.

٢. ينظر: تفسير القرطبي ٢ / ٤٣٨ – ٤٣٩، روح المعاني ٨ / ٥٥٤.

٣. ينظر: التحرير والتنوير ٢ / ٢٣.

ولا يخفى إن ارتباط العلم بالواقع الخارجي غير خارج عن العلم الإلهي المطلق، وفي هذا يقول كمال الحيدري: " كان علم الله بالأزل بنحو يريد (سبحانه) أن يرى ذلك العلم ومعلومه في الواقع العيني، عبر الانتقال من عالم العلم الإلهي إلى عالم العين الخارجي. وبذلك سوف يكون هذا الواقع الخارجي هو معلوم ذلك العلم الذي هو عين الذات"[1].

والزمن ليس هو الحاضر، بل يتوقف تحديده عَلَى تحقق الفعل في الخارج.

البناء المضعف

قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ سورة يوسف / ١٠١.

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ سورة النساء / ١١٣.

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لدُنَّا عِلْمًا ﴾ سورة الكهف / ٦٥.

﴿ وَيُعَلِّمُكُم ما لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة / ١٥١.

وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضرهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ سورة البقرة / ١٠٢.

المبنى في الآيات المتقدمة عَلَى اختلاف صوره مضعف، وهو لا يفيد التكثير – كما ذهب الجوهري[2] – بل استعمل للتعدية،

---

١. التوحيد ١ / ٢٧١ – ٢٧٢.

٢. الصحاح ٥ / ١٩٩١.

وهو أن يجعل الفاعل مع مبنىٰ الحدث الأصلي منفعلاًمن فاعل آخر، وقد يكون هذا الفاعل الله أو الرسول، وفي بعضها الشياطين ويأجوج ومأجوج.

جاء البناء في الآية الأولىٰ بصيغة الماضي الدال عَلَىٰ الزمن الماضي، لأن الحديث فيها عن الشكر والثناء للنعم الَّتِي أنعمها عليه الله«وَجَلَّ»، فيما سلف، وما يميز حدث التعليم عن غيره انه غني عن التجربة، بعيد عن الممارسة الَّتِي تحتاج إِلَىٰ النظر والاستدلال، لا يحتاج سوىٰ صفاء النفس، وطهارة الروح. أي الاستعداد لتقبل التعليم الإلهي مباشرة.

وفي الآية الثانية استعمل المبنىٰ نفسه الدال عَلَىٰ الحدث الماضي، ليقدم معطىً إلهياً خاصاً، وهبة ربانية مميزة، ليس من شأنه الاتصاف بها بالأدوات المألوفة والوسائل المعرفة بالنظر والاستدلال. انه علم من سنخ آخر كما يقول الطباطبائي[1]، يكون بنحو من الإلقاء في القلب والإلهام الخفي..

وإذا ما انتقلنا إِلَىٰ الآية الثالثة فسنجد أن الحدث الذي أظهره المبنىٰ المضعف بصيغة الماضي يدل عَلَىٰ أن الفاعل حقيقته منفعلاً لفاعل أكمل وأشد، فإذا كان الفاعل الابتدائي لحدث الفعل غير المضعف قد اكتسب بالأسباب، فأنه بالتضعيف قد اكتسب بمسبب الأسباب، فأضحىٰ التغاير بين الاثنين واضحاً،

---

١. ينظر: الميزان ٥ / ٨٠ وما بعدها

وفي هذا يقول السيد الطباطبائي: " وأما قوله ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾ فهو كالرحمة الَّتِي من عنده علم لا صنع للأسباب العادية كالحس والفكر حتىٰ يحصل من طريق الاكتساب والدليل عَلَىٰ ذلك قوله ((من لدنا)) فهو علم وهبي غير اكتساب يختص به أولياءه"[1].

والآية الرابعة استعملت الحدث المتجدد حيناً بعد حين ((يعلمكم)) ليدل عَلَىٰ أن علمهم الذي توافرت عليه عقولهم وأيقنت به قلوبهم لم يكن شيئاً، لولا تدخل الفاعل المربي (الرسول الأكرم «ﷺ») في تعديل مسارب وجهتهم وآفاق رؤيتهم، فأصبحوا بعلمه متعلمين لأجلّ الحقائق، وأنفع المعارف الَّتِي فيها سعادتهم الحقة عما تقتضيها طبيعتهم الَّتِي جبلوا عليها من حب الكمال الموصل إِلَىٰ المطلوب وهو الظفر بالحياة السرمدية بجنب الله «ﷻ».

وقد جاء متعلق العلم، هنا، القرآن بعدّه كتاب شريعة واصل الفضائل المنيعة من الوقوع في الخطأ؛ فضلاً عما هو أعم من ذلك مما لم تكونوا تعلمونه[2] وبالجملة هي العلوم النافعة الَّتِي تعطي آثارها من الظفر بعيش رغيد وحياة هنيئة لا صخب فيها ولا وصب، والفوز بلقاء الله «ﷻ». والتعليم هنا أي الحدث

---

١. الميزان ١٣/ ٣٤٢

٢. ينظر: التحرير والتنوير ٢ / ٤٩

يستمر ويتجدد ما دام الفاعل موجوداً وهو شخص الرسول، ولا يخفى أن هذا النحو من العلم يختلف عما سبق، لاختلاف أطرافه وتفاوت المستويات.

وفي الآية الأخيرة جاء المبنى عَلَى صورة المضعف المزيد بالتاء، ليدل عَلَى بذل الجهد والطاقة في تحصيل الفعل عَلَى نحو التجدد، مرة بعد مرة لنيله وإتقانه، ونيل أصل الفعل بعد مزاولة واجتهاد يحتاج إِلَى سعي وزمان، ومن ثم فهو يختلف عن مبنى الحدث في الآيتين المتقدمتين، لأنه هناك يؤتى من لدن الله، وهنا يقصد منهله ويتبع مصدره، ولا يخفى ان النتائج المترتبة عَلَى الاثنين تختلف كلياً، إذ إن الأخير يحتمل فيه الخطأ والاشتباه والضرر والفساد بخلاف الأول الذي يكون نورانياً رحمانياً لا يتخلف عن معلومة ولا يختلف ولا يلحقه الخطأ ولا يطرأ عليه الاشتباه..

جـ - بناء أفعل

قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُواْ اللهَّ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَّ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ سورة البقرة / ١٩٤.

﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَّ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ ﴾ سورة البقرة / ٢٣١.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾ سورة الحديد / ٢٠.

إن هذا البناء يستعمل ويراد به طلب حصول الفعل من

المخاطب، وهو يختلف عن الأبنية المتقدمة في الزمن والأسلوب، والدلالة، فزمنه متوقف عَلَىٰ الانجاز، وأسلوبه للطلب لا للإخبار، ودلالته للوجوب أو مطلق الأمتثال. والمتأمل من الآيات يجد أن لهذا البناء مزية فريدة، لأنه طلب للعلم والتبصر في ميادين شتىٰ، ففي الآية يطلب من المخاطب العلم بكون الله مع المتقين، والطلب ليس لمجرد التوجيه، بل هو وسيلة للتقوىٰ، لذا لا يترتب عَلَىٰ امتثالهم قيمة إذا لم يكن العلم جالباً للتقوىٰ.

وفي الآية الثانية يطلب من المخاطب أن يعلم علماً واقعياً يترتب عليه الأثر، (إن الله محيط بكل شيء) والعلم بهذا المعلوم يحتاج الحضور في ساحة الله وحضرته، حتىٰ يتيقن أن الله مطلع عَلَىٰ بواطن الأمور ولطائفها.

وفي الآية الثالثة يدعو المخاطب دعوة فعلية لأن يعلم الحقيقة من الوهم والخيال، فليس الحياة في هذه النشأة إلا دانية محفوفة بالشهوات والمكدرات الَّتِي تحبس النفس بعقال اللهو واللعب. وإذا ما علم المخاطب بحقيقة الحياة الدنيا، أمتثل أمر الله (عَزَّ وَجَلَّ) بالعلم، وأصبح من المنتفعين بعلمهم، لأن من علم عمل ومن عمل وصل..

٢ – الأبنية الاسمية

إن بناء الاسم يختلف عن بناء الفعل من حيث الدلالة والزمن، فإذا كان الفعل يتقيد بالأزمنة الثلاثة لذاته نسبة إِلَىٰ الحدث الذي ينجز أو المراد انجازه، فإن الاسم عري من ذلك.

يقول عبد القاهر: " إن موضوع الاسم عَلَىٰ أن يثبت به المعنىٰ للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه عَلَىٰ أن يقتضي تجدد المعنىٰ المثبت به شيئاً بعد شيء"[١].

وأكد هذا الرازي بقوله: " الاسم له دلالة عَلَىٰ الحقيقة دون زمانها، فإذا قلت (زيد منطلق) لم يفد إلا إسناد الانطلاق إِلَىٰ زيد. وأما الفعل فله دلالة عَلَىٰ الحقيقة وزمانها فإذا قلت (انطلق زيد) أفاد ثبوت الانطلاق في زمان معين لزيد وكل ما كان زمانياً فهو متغير والمتغير مشعر بالتجدد فإذن الأخبار بالفعل يفيد وراء أصل الثبوت كون الثابت في التجدد والاسم لا يقتضي ذلك"[٢].

أقول: إن هذه النظرة ليس لها أساس عقلي؛ لأن الزمان هو فرع الحركة، والحركة متقومة بالتغيير التدريجي، وهي من

---

١. دلائل الإعجاز ١١٧.

٢. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ٧٥٠.

الأعراض الَّتِي تقوم بالغير، ومن المعلوم إن بعض الأعراض لا يتسم بالثبات، بل تتحول وتزول، وإن كان زوالها بطيئاً، ومن أصدق المفاهيم عَلَىٰ ذلك بعض أوزان الصفة المشبهة – وهي أسماء – مثل صيغة فعلان، الَّتِي لا تعطي معنىٰ الثبات.

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ سورة الأعراف / ١٥٠.

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾ سورة الأعراف / ١٥٤.

والمعنىٰ واضح من الآيتين في طرو الغضب وزواله، وليس بعاقل من يقول بثباته بعد ان أكده القرآن. وفي استعمال بعض المصادر ما يخرق الكلية المزعومة بقولهم، فصيغة فعلان لا تقتضي الثبات، بل هي للدلالة عَلَىٰ التقلب والاضطراب والحركة كالغليان[1].

يقول الدكتور فاضل السامرائي في استعمال هذا المصدر:

" فأنت تقول غليت الماء غلياً وغلىٰ الماء غلياً إن أردت الفعل ولم ترد التقلب والحركة... فان أردت الحركة والاضطراب قلت: غلىٰ الماء غليان"[2].

ومثله الصفة المشبهة الَّتِي عَلَىٰ وزن فَعِل[3].

---

١. ينظر: معاني الأبنية ٣٠ – ٣١.

٢. معاني الأبنية ٣١.

٣. السابق نفسه ٣٠.

وكذا ما يقع حالاً في النحو، لأنه وصف غير ثابت في الأعم الأغلب...

ومما تقدم يتبين: إن الاسم قد يكون دالاً عَلَىٰ الثبوت، وقد يدل عَلَىٰ خلافه؛ بحسب الاستعمال والوضع، أما الزمان، فانه يفهم من قرائن السياق، وقد يفهم من بعض الأسماء المنقولة للظرفية.

بعد أن اتضحت الدلالة المفهومة من الاسم، نأخذ أمثلة من هذه المباني:

بنـــاء فاعل

إن هذا البناء له أمثلة كثيرة يحتذىٰ به، ويصاغ عَلَىٰ منواله من كل فعل ثلاثي، ويسمىٰ في الاصطلاح اسم الفاعل، وهو يدل، عند القوم، عَلَىٰ الحدث والحدوث وفاعله[1].

ظهر بناء عالِم من تلبس مادة (ع ل م) بهذه الصيغة في آيات قرآنية:

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ سورة الأنعام / ٧٣.

﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ سورة

---

١. ينظر: أوضح المسالك ٢/ ٢٤٨، شرح التصريح عَلَىٰ التوضيح ٢/ ١١، معاني الأبنية٤٦.

الحشر / ٢٢.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ سورة الجن / ٢٦.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سورة فاطر / ٣٨.

إن لهذا البناء لحاظين: الأول هو الذات، والثاني هو الوصف للذات، ومن هذين اللحاظين نشأ مفهوم الاسم، وهو أن نتعرف عَلَىٰ الذات بوصف من أوصافها.

ولم يأت هذا الاسم في القرآن إلا مضافاً، والمضاف إليه ظهر بثلاث صور:

الأولىٰ مع الغيب في سورتي سبأ والجن، والثانية مع الغيب والشهادة في عشر آيات، والثالثة مع غيب السموات والأرض في سورة فاطر، وما ذلك إلا لاقتضاء المقام، وهو إحاطة الاسم بجميع المعلومات، سواء أكانت غائبة مستورة أم ظاهرة مشهودة. يقول الطاهر بن عاشور: " ولا تخرج الموجودات عن الاتصاف بهذين الوصفين، فكأنه قيل: العالم بأحوال جميع الموجودات"[1].

وبتدقيق أكثر نقول: إن اقتران المبنىٰ بالغيب دون الشهادة مرجعه اهتمام السورة ببيان أمر البعث أكثر من غيره، فتذكر المنكرين للساعة وتأمر النبي بالرد عليهم[2].

---

١. التحرير والتنوير ٦ / ١٦٩.

٢. ينظر: الميزان ١٦ / ٣٥٧.

وليس يوم القيامة، وما تجري فيه من أحداث مما تدركه عقولهم، أو تعلمه نفوسهم حتىٰ يكون محلاً لإنكاركم.. إن العلم مختص بالمالك الحقيقي الذي بيده كل شيء، وقد ناسب استعمال الاسم مضافاً إِلَىٰ الغيب من جهة إنكارهم للغيب والبعث. وإضافته في سورة الجن من دواعي السياق أيضاً، فالحديث فيها عن المستور عن نشأتهم الغائب عن عقولهم، وهو يوم القيامة، وما فيه من نار تلفح وجوه العاصين لله ورسوله، وليس لتحقق هذا العلم يوم معلوم في القاموس المعرفي سوىٰ عالم الغيب وحده.

وتقيد الغيب بالسموات والأرض دون مطلق الغيب في سورة فاطر، فلأن السموات والأرض من الظواهر المألوفة لدىٰ هؤلاء المشركين، وهم بتماس معها يومياً، ولا سبيل لهم دونها؛ إذ الأرض مهادهم، والسماء سقفهم ومع ذلك غفلوا عن أكثر ما فيها من أسرار ولطائف، وهذه الآية مقدمة لما بعدها، أي: إذا كانت الغائبات عنكم في السموات والأرض، وهي من مظاهر العظمة، يعلمها الله، فكيف بكم وما أضمرتم في نياتكم وأسررتم في أنفسكم.

إن إضافة المبنىٰ في الآيات المتقدمة، جعله يكتسب الزمن الماضي في أعراف النحاة[1]، وهو في مورد الله «وَجَلَّ» لا يشترط

---

١. ينظر: أوضح المسالك ٢ / ٢٤٨، شرح ابن عقيل ٢ / ١٠٦.

ذلك؛ لأن الزمان ينشأ مع نشوء الحركة والفعل، المرتبط بعالم الخلق لا عالم الخالق، والزمان المستفاد من المبنى في السياق يحدده النشاط الذهني والتأمل العقلي الذي يقضي بان الموجودات كلها من خلق الله «عَزَّوَجَلَّ»، سواء أكانت ظاهرة أم باطنة، وعندما تصبح متعلقة بالعلم الإلهي، فلا غرو أنها منذ الخلق والتكوين، وهذا يجعل زمنها ماضياً.

وقد استعمل هذا المبنى مجموعاً في سبع آيات، بعضها جمع مذكر، وفي آيات أخرى استعمل منه جمع التكسير، ولكل منهما دلالته بحسب السياق والمعطى الصرفي للبناء، قال تعالى:

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ سورة العنكبوت / ٤٣.

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ سورة يوسف / ٤٤.

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرائِيلَ ﴾ سورة الشعراء / ١٩٧.

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ سورة فاطر / ٢٨.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ سورة الأنبياء / ٥١.

﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شيءٍ عَالِمِينَ ﴾ سورة الأنبياء / ٨١.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ سورة الروم / ٢٢.

في الآيات السابقة جمع لفظ ((عالم)) عَلَىٰ (عالمون و علماء) وقد سمي الأول في عرف النحاة والصرفيين جمع مذكر سالم، والثاني جمع تكسير، وهما ليسا سواء في الدلالة، فجمع المذكر السالم يدل عَلَىٰ القلة، وجمع التكسير يدل عَلَىٰ القلة والكثرة، ومن جهة أخرىٰ إن جمع المذكر إذا كان للصفات، أبعدها عن الاسمية وقربها إِلَىٰ الفعلية، وجعل دلالتها عَلَىٰ الحدث بخلاف جمع التكسير الذي يقرب من الاسمية، وهذا ما اختاره الدكتور فاضل السامرائي مرتكزاً في ذلك عَلَىٰ احتياج الجمع إِلَىٰ متعلق[1].

ولكن هذا لا يصلح توجيهاً مطلقاً لهذين الجمعين، لأن من جموع القلة ما يدخل عليه ال التعريف فيجعله للكثرة، فضلاً عن ورود ألفاظ عَلَىٰ جموع القلة، وليس لها جموع كثرة أصلاً فكيف نحملها عَلَىٰ القلة.. إن السياق هو الملاك في تحديد القلة والكثرة.

أما احتياج الوصف المجموع جمع مذكر سالم إِلَىٰ المتعلق، فلأن مفرده يسلم عند الجمع، ومن ثم فأن احتياجه إِلَىٰ المتعلق بعد الجمع كائن، تقول: علمت بزيد وعالم بزيد وعالمون بزيد، أما المجموع جمع تكسير، فقد يكون السر في عدم احتياج مفرده إِلَىٰ متعلق هو تغير مفرده عند الجمع، ولا يخفىٰ إن تغير الصورة

---

١. ينظر: معاني الأبنية ١٤٤ – ١٤٥.

يعني انتقاء الشبه بالفعل، ألا ترىٰ أن اسم الفاعل لا يعلم إذا صغر، هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ إن التعلق بشيء يعني التقيد به، ولا حاجة لذلك إذا كان الجمع يطرد في الوصف الذي عَلَىٰ وزن فعيل أو فاعل وفيه دلالة عَلَىٰ الغرائز والسجايا؛ لأنها تدل عَلَىٰ الثبوت، فكريم وكرماء لا تخصص بفرد أو جهة، بل هي ثابتة في الشخص عَلَىٰ نحو التمكن، سواء أكانت لزيد أم لغيره، أما ذكر التخصص في بعض الموارد، فربما لزيادة العناية بشأن المتعلق والاهتمام به كما في قوله تعالىٰ:

﴿ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ سورة النساء / ٢٩.

﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَىٰ الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ سورة الفتح / ٢٩.

إذاً يمكن تفسير قول السامرائي في أغلب الموارد لا جميعها، لأن احتياج المتعلق في بعض الموارد ضروري، لأن العناية تطلبه أكثر.

استعمل الجمع في الآية الأولىٰ في حق صنف من الناس لهم الأهلية للتعقل، وإدراك حقيقة الأمثال المضروبة[1]، لا الإيمان بها فحسب، لأن هذا يشترك فيه الناس جميعاً، ولا يخفىٰ إن الأمثال من مأثورات الشعوب، ولكن تعقلها، واتخاذها ذريعة للوصول إِلَىٰ المستبطن وراءها يشعر بكمال هذا الصنف من

---

١. ينظر: الميزان ١٦ / ١٣٢.

الناس.

وقد جاء الجمع في الآية الثانية في سياق النفي والبراءة من نيل شرف العلم القائم عَلَىٰ تفسير الأحلام، وحل رموزها، وهل هذا الا اعتراف بالنقص والضعف والتجرد من فضيلة سامية لها الشرف في إزالة اللبس عن معضلات الأمور.

وشرافة العلم المتقدم تكمن في ارتباطه بمراتب وجودية غيبية، لا ينالها إلا من طهر قلبه، وصفت سريرته، واتقىٰ الله. قال تعالىٰ:

﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ ﴾ سورة البقرة / ٢٨٢.

وفي الآية الثالثة والرابعة جاء الجمع بصورة مغايرة للجمع الأول، ويحتمل أن يكون مفرده مبنىٰ عالِم والمسوغ له حصوله بعد مزاولة وطول ملابسة، أي انه كالغريزة الثابتة الَّتِي لولاها، لقيل متعلم لا عالِم، ولما خرج بالغريزة إِلَىٰ باب فُعل صار بمعنىٰ عليم[1]. وهو يكشف – في الآيتين – عن المنزلة والميزة الَّتِي يتمتع بها هؤلاء، فغدوا متبوئين منزلة اجتماعية مرموقة في قومهم، لكن في الآية الثالثة الَّتِي تقرن العلم بالخشية من الدلالة الشيء الكثير؛ لكون المعلوم هو الذات الإلهية بأسمائها وصفاتها[2].

---

١. الخصائص ٢٩٨، وينظر: معاني الأبنية ١٦٦ – ١٦٧.

٢. ينظر: الميزان ١٧ / ٤٣، التحرير والتنوير ٢٢ / ١٥٨.

ولاشك أن الخشية تقترن مع المعلوم، عند هؤلاء، لأن الوصول إِلَىٰ هذا المقام ليس بميسور لكل احد، ومن ثمار هذا المقام هو ترتب الآثار عَلَىٰ المعلوم وعدم تقهقرها، ومجيء الجمع مع الغرائز والسجايا يؤكد ذلك.

أما الآيتان الخامسة والسادسة، فقد استعملت صيغة الجمع في مورد الله«ﷻ»، وفيها من الفخامة والقوة ما لا يخفىٰ، فضلاً عن لفت المخاطب إِلَىٰ براعة الاستعمال في العدول عن فاعل إِلَىٰ فاعلين، ولها قيمة فنية تزيد من جمال الفاصلة. والعلم في الأولىٰ يشمل دقائق الأمور والأحوال، والإحاطة بكل شيء في الثانية.

وإذا ما انتقلنا إِلَىٰ الآية السابعة، فإننا سنجد تعلم العلم في مظاهر خلقه ونظام تدبيره، وهو مسوق للتأمل في نظامه الأرضي كما يعبر الطاهر " فخلق السموات والأرض آية عظيمة مشهودة بما فيها من تصاريف الإجرام السماوية الأرضية، وما هو محل العبرة من أحوالها المتقاربة المتلازمة كالليل والنهار.."[1].

ومتعلق العلم هنا الموجودات الخارجية الحية الَّتِي تستدعي لفت النظر إِلَىٰ دقة ارتباطها وانتظامها وحكايتها عن مبدع قديم، ومثل هذا الارتباط يتم بدخالة الحواس والآلية الذهنية

---

١. التحرير والتنوير ٢١ / ٣٣ – ٣٤.

المحللة الَّتِي تحتاج إِلَىٰ مزاولة حيناً بعد حين، لكي تشتد، وتكون صالحة للرسوخ.

ب – بناء مفعول

يدل هذا البناء عند أهل الصنعة عَلَىٰ الحدث ومفعوله[1]، وأضيف عليه الدلالة عَلَىٰ الحدوث[2] ولا تختلف دلالته عَلَىٰ الزمن عن اسم الفاعل، فقد يأتي دالاً عَلَىٰ الزمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل من خلال السياق. وقد تلبست مادة (ع ل م) بهذا البناء، فأنتج لنا (معلوم) لتدل عَلَىٰ أن الشيء غير خفي، ومن أمثلته القرآنية:

﴿ وَإِن مِّن شيءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ معْلُومٍ ﴾ سورة الحجر/ ٢١

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ معْلُومٍ ﴾ سورة الشعراء / ٣٨

﴿ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ معْلُومٍ ﴾ الواقعة / ٤٩ – ٥٠

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ معْلُومٌ ﴾ سورة الصافات / ١٦٤.

استعملت هذه الآيات المبنىٰ ((معلوم)) وهو اسم مفعول مأخوذ من الثلاثي، ليدل عَلَىٰ أن الشيء المذكور غير خفي عَلَىٰ

---

١. ينظر: أوضح المسالك ٢ / ٢٥٩.

٢. ينظر: معاني الأبنية ٥٩.

العالم باختلاف مراتبه.

ففي الآية الأولى يكون المعلوم حاضراً عنده غير مجهول، وهو التقدير بالنسبة إِلَى كل الأشياء النازلة من خزائنه «ﷻ»[1].

والمعلوم في آية الشعراء هو اليوم الذي أتخذ لمعارضة السحرة في قصة موسى «عليه السلام». والمعلوم في الآية الثالثة هو يوم القيامة الذي يجتمع فيه الأولون والآخرون، وتحققه كائن في المستقبل لا محالة، فلا سبيل لأحد أن يعرفه إلا الله «ﷻ».

والمعلوم الرابع هو المقام المشخص المعروف الذي لا يتعداه، سواء أكان للملائكة[2] أم للناس[3]. وقد ورد هذا البناء في القرآن مجموعاً جمع مؤنث سالم.

قال تعالى:

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ سورة البقرة / ١٩٧.

﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ سورة الحج / ٢٧.

والمسوغ للجمع في الآيتين مجيء المبنى وصفاً لما لا يعقل، وهما الأشهر والأيام فأشهر الحج كانت معلومة عند العرب[4]، والأيام المعلومات لذكر الله «ﷻ» هي في الحج[5].

---

١. ينظر: الميزان ١٢ / ١٤٤، التحرير والتنوير ١٣ / ٣٠.

٢. ينظر: الميزان ١٧ / ١٧٥.

٣. ينظر: التحرير والتنوير ٢٣ / ٩٨.

٤. ينظر: الميزان ٢ / ٧٨، التحرير والتنوير ٢ / ١٩٧.

٥. ينظر: التحرير والتنوير ١٧ / ١٧٩.

جـ – بناء مُـفـعّـل

قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾ سورة الـدخان / ١٤.

أخذ هذا البناء في عرف النحويين والصـرفيين مـن الثلاثـي المضعف (فعّـل) وبني للمفعول، ليدل عَلَىٰ أن الذات وقع عليها التعلـيم، ومبـدأ التعلـيم واقـع في سـياق أدعـاء المشـركين إن الرسول معلـّم بالشأن الذي جاء به، لا انه جاء بـه مـن السـماء، ولم يرد هذا البناء إلا في الآية المتقدمة.

د – بناء أفعل

يؤدي هذا البناء وظائف متعددة، منهـا الوصـف في الألـوان والعيـوب الظـاهرة والحـلىٰ مـن خلقـه أو مـا هـو بمنزلتهـا[١]، والتفضـيل، وهو الوصف الموازن للفعل تحقيقاً أو تقديراً الـدال عَلَىٰ زيادة صاحبه في أصل الفعل[٢].

وقد تلبس بهذا البناء مـادة (ع ل م)، فـدل عَـلَىٰ المفاضـلة في أصل العلـم، أي: إن شـيئين اشـتركا في الصـفة نفسـها، فـزاد

١. ينظر: منحة الجليل ٢ / ١٧٤، شـرح التصـريح عَلَىٰ التوضـيح ٢ / ٩٢.
٢. ينظر: شـرح شافية ابن الحاجب ١/ ١٠١– ١٠٢. وينظر: معاني الأبنية ٨٤.

احدهما عَلَى الآخر، مهما كان الطرفان، سواء أكانا متفاوتين كالواجب والممكن أم متفقين بالنوع. ومن أمثلة هذا البناء:

قال تعالى: ﴿ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ ﴾ سورة البقرة / ١٤٠.
﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ سورة آل عمران / ٣٦.
﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ سورة الأنعام / ١٢٤.
﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ الأنعام / ١١٧.
﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ سورة العنكبوت / ٣٢.

استعمل هذا البناء، وأريد به التفضيل لا الصفة المشبهة الَّتِي تعطي معنى المشقوق الشفة العليا، وإن كان غير واحد ذهب إِلَى أن البناء – هنا – قد يعطي معنى من قام بالفعل (عالِم)[1].

لظهور الباء معه دون من، ومن المقرر في هذا البحث أن اسم التفضيل إذا أفرد، ولم يضف لزمته من[2]، وإن كانت مقدرة، ولما كان الظاهر مع اسم التفضيل هو الباء دون من، قيل انه بمعنى اسم الفاعل، وخصوصاً إذا لم يكن ثمة مفاضلة.

---

١. ينظر: شرح ابن عقيل ٢ / ١٨٢، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٨/ ٧٠٠.

٢. ينظر: السابق ٢/ ١٧٢، و أوضح المسالك ٢ / ٢٩٤ – ٢٩٥

ولكن ظهور الباء مع الاسم لا يعني صرفه عن التفضيل، لأن المفضول عليه قد يحذف ويدل عليه السياق، ولا ضير في كون العلم ومعلومه يصدق عَلَىٰ الله«ﷻ» وعلىٰ الإنسان، ولا يرد عليه إن علم الإنسان ما كان يتحقق لولا العلم الإلهي المتجلي به عليه، لأن هذا نظر الموحد العارف الذي يرىٰ الوجود بحقيقته، ولا يرىٰ ثمة استقلال لشيء، أما من دنت مرتبته، وقصرت به همته، وتحلىٰ بحجاب انيته، فهناك سبيل للمفاضلة؛ لكي يثبت بالحجة والبرهان للمعاند والمنكر العلم لله عَلَىٰ نحو أعلىٰ وأشرف وأتم من غيره. والآيات الَّتِي تخاطب المنكرين والمكذبين وأشباههم ظاهرة في ذلك، وقد تبرز خصوصية المعلوم في بعض المواطن، والاهتمام به، فتستدعي المفاضلة من جهة، وان كانت بين النبي إبراهيم والملائكة«عليهم السلام». أما عدم ذكر المفضول عليه في جل الآيات القرآنية، فربما لهوان علم المفضول عليه، أو لعمومه.

في الآية الأولىٰ ذكر المفضول عليه لكن ليس مع حرف الجر من، بل ظهر الفاضل والمفضول عليه طرفين لـ أم الواقعة بعد همزة التعيين، الَّتِي يراد بها – هنا – التوبيخ والإنكار[1].

وقد دلت المفاضلة ضمناً بين علم الله«ﷻ»، وعلم المخاطبين في الآية في المعلوم (ما كان عليه إبراهيم من ديانة)، وشتان بين

---

١. ينظر: التحرير والتنوير ١ / ٧٢٦.

الاثنين، فالله أعلم بإبراهيم من هؤلاء.

واستعمال هذا النحو من الأسلوب في المفاضلة تقنية أسلوبية لحمل المخاطب عَلَىٰ الإذعان والإيقان، لأن أم مع الهمزة تفرض عَلَىٰ المتلقي اعتماد احد الطرفين.

أما الآية الثانية، فقد استعمل الوصف للتفضيل، والمفضل عليه محذوف مع حرف الجر من، وهو يعود عَلَىٰ أمّ مريم، أي إن الله أعلم منها بنفاسة ما وضعت[1]. وقيل هم المخاطبون في الآيات القرآنية[2] ولكن سياق الآيات يشهد أن المفضل عليه هو أم مريم، لأنها كانت تتصور أن المولود ذكر، وقوله تعالىٰ: " ليس الذكر كالأنثىٰ " يؤكد ذلك.

والوصف في الآية الثالثة استعمل للتفضيل بين العلم الإلهي، وعلم المدعين: " حتىٰ نؤتىٰ مثل ما أوتي رسول الله " ومتعلق العلم هو شخص الرسول[3]، وليس لعلم هؤلاء المدعين أي اعتبار في تشخيص مواضع الرسالة. واستعمال التفضيل – هنا – يشعر بان علم المدعين له قيمة واعتبار – كما يثبته القرآن – وهو مع ذلك لا يفضل عَلَىٰ علم الله «ﷻ».

ولكن تحرير هذا النحو من المطالب يحتاج إِلَىٰ وعي المخاطب

---

١. ينظر: التحرير والتنوير ٣ / ٨٦.

٢. ينظر: أفعل التفضيل وأحسن التمثيل في محكم التنزيل ٢٠.

٣. ينظر: التحرير والتنوير ٧ / ٤١.

بالظروف والملابسات الَّتِي تحيط بالحدث التاريخي ابان نزول القرآن، وخصوصاً إن القرآن يسعىٰ لإعجاز الخصم وتبكيت المعاند، وتقرير مثل هذا الأسلوب هو لأجل تسليم المخاطب بان له نحواً من العلم، ولكن لا يستطيع أن يمتد ليشمل دقائق الأمور وبواطنها، وموضوع اختيار الرسول تحدده جملة من الأمور، وأهمها هو العلم التام غير المتناهي الذي يحيط بكل شيء، ومنها استعداد الرسول وقدرته عَلَىٰ تحمل أعباء الرسالة، وليس بوسعكم، وما تحملون من علم أن تصلوا إِلَىٰ هذه المعرفة، وذلك العلم الذي يراعي الحكمة ومصالح الأمور.

وفي الآية الرابعة استعمل البناء وهو اسم تفضيل للدلالة عَلَىٰ أن الله لا يغرب عن علمه احد من الضالين، ولا احد من المهتدين، وأن غير الله قد يعلم بعض المهتدين وبعض المضلين، ويفوته علم كثير من الفريقين[1].

وهناك من لم يحمل البناء عَلَىٰ التفضيل[2]، واحتمل آخر هذا المعنىٰ إذا لم يتم بمن الجارة، وأريد به أن حقيقة العلم بالضالين والمهتدين هو لله «عَزَّوَجَلَّ»، ولا يشاركه به احد حتىٰ يفضل عليه[3]. ومثل هذا قالوا في سورة القصص " رب أعلم من جاء

---

١. ينظر: التحرير والتنوير ٧ / ٢٣.

٢. ينظر: الدر المصون ٥ / ١٢٦.

٣. ينظر: الميزان ٨ / ٣٤٢.

بالهدىٰ... "[1].

أما الآية الخامسة، فقد احتمل ابن عاشور في المبنىٰ أن يكون للوصفية المجرد من التفضيل، من أجل أن يدفع الإشكال الذي يرد حول أعلمية الملائكة من أنبياء أولي العزم، فارتضىٰ أن يكون المعنىٰ: نحن عالمون بمن فيها.

واحتمل أن يكون للتفضيل بين علم الملائكة وعلم النبي إبراهيم «عليه السلام» وعلل التفضيل بأسبقية علمهم عَلَىٰ علمه، وانه وحي من الله[2].

وللعلامة الطباطبائي توجيه جميل مفاده: إن جواب الملائكة محمول عَلَىٰ ظاهر كلام النبي إبراهيم «عليه السلام» عندما خاطبهم " إن فيها لوطاً "، لأنه كان عالماً بان الله «عز وجل» لا يعذب النبي «عليه السلام» ولكنه أراد بسؤاله أن يدفع الله العذاب عن أهل القرية تشريفاً له[3].

ويمكن أن يحمل التفضيل عَلَىٰ أن لكل علم متعلقه، وإن الله «عز وجل» يفيض عَلَىٰ الموجودات ما يناسب شأنهم ومقامهم ووظيفتهم، ومن هذه الجهة قد يكون للملائكة أفضلية بإحدىٰ هذه اللحاظات.

---

١. ينظر: الميزان ١٦ / ٩٠.

٢. ينظر: التحرير والتنوير ٢٠ / ١٦٤ – ١٦٥.

٣. ينظر: الميزان ١٦ / ١٢٨.

هـ – بناء فعيل

إن لهذا البناء معاني وظيفية متعددة عَلَىٰ النحو الآتي:

اسم ذات: سبيل وحرير

اسم معنىٰ: شهيق

صفة مشبهة: عزيز

يغة مبالغة: عليم

اسم فاعل: نذير

اسم مفعول: قتيل

اسم جمع: قبيلة

جمع تكسير: حمير

اسم جنس: شعيرة[1].

وقد لوحظ هذا المبنىٰ مع المادة اللغوية، فأعطىٰ عليم، ليدل عَلَىٰ مبالغة اسم الفاعل، وهو منقول – عَلَىٰ رأي د. فاضل السامرائي – عن فعيل الصفة المشبهة، ويدل عَلَىٰ معاناة الأمر وتكراره حتىٰ أصبح كأنه خلقة في صاحبه وطبيعة فيه، فهو لكثرة نظره – مثلاً – في العلم وتبحره فيه أصبح له سجية ثابتة كالطبيعة فيه[2]. لكن تبقىٰ الدلالة أسيرة الفهم المادي، لان

---

١. ينظر: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم ٥٧ – ٥٨.

٢. ينظر: معاني الأبنية ١١٧.

تطبيقه في مورد المجردات يخلق إشكالية كبيرة.

واستعمل البناء عَلَىٰ نحوين: مفرد، ومقترن مع غيره من الأسماء الإلهية. قال تعالىٰ:

﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ سورة البقرة / ٢١٥.

﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ سورة البقرة / ٩٥.

﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة الأعراف / ١٠٩.

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة يوسف / ٥٥.

﴿ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشرك بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ سورة الحجر / ٥٣.

يقول الآلوسي في الآية الأولىٰ: " وفي (عليم) من المبالغة ما ليس في عالم وليس ذلك راجعاً إِلَىٰ نفس الصفة لأن علمه تعالىٰ واحد لا تكثر فيه لكن لما تعلق بالكلي والجزئي والموجود والمعدوم والمتناهي وغير المتناهي وصف نفسه سبحانه بما دل عَلَىٰ المبالغة – والشيء – هنا عام باقٍ عَلَىٰ عمومه لا تخصيص فيه "[1].

ومجيء العلم مع مظاهر خلقه وإبداعه يدل عَلَىٰ ارتباط العلم بالنظام المحكم الذي يجمع موجودات عالم الإمكان، فهي في

---

١. روح المعاني ١ / ٢٩٤.

نسقها ورتابتها غير خارجة عن علمه«ﷻ»، ولما كانت الأشياء في الخارج غير محدودة – وهي متعلقة بالعلم – أطلق العلم من التقييد، وأصبح دالاً عَلَىٰ العموم والسعة، وفي هذا من المبالغة ما لا يخفىٰ، فضلاً عن مبالغة المبنىٰ.

ولا تخرج الآية الثانية في مبالغة العلم عن السابقة، إلا إن ظهور المعلوم بصورة مفهوم خارجي قيد العلم بالمعلوم خلافاً للأولىٰ، وقد استعمل المبالغة مع المعلوم – مع أن اتصاف الله بالصفات يجري عَلَىٰ سمت واحد – لحاجة السياق، فهي – أي الآية – تخاطب اليهود وتكشف زيف أدعائهم: إن الجنة لهم خالصة، وأنهم أحباء الله، لأن أيديهم قد لطخت بالمعاصي وفسدت معتقداتهم، فأضحوا ضالين تائهين، فجاءت الآية تهددهم بان الله – لسعة علمه وإحاطته – لا تخفىٰ عليه ما انطوت عليه ضمائركم، وخُبث سرائركم، وسوء فعائلكم.

وقد قوبل بين أعمالهم الكثيرة غير الصالحة، واستعمال المبنىٰ للمبالغة.

وفي الآية الثالثة استعمل البناء للمبالغة في علم السحر، أي إن علمه بالسحر مبالغ فيه[1]، والكلام للملأ من قوم فرعون لما رأوا معجزات موسىٰ«عليه السلام». والمبالغة منهم تتناسب مع ما لحقهم من هول وتعجب، وقد دفعهم إنكارهم وخفة عقولهم

---

١. ينظر: نفسه ٩ / ٣٢.

إِلَىٰ عد هذا العمل من علم السحر المبالغ فيه، لذلك هم أذعنوا، انه شيء عجيب، وفائق للعادة، فوصفوه بالعليم، وإن علّق هذا الوصف بالسحر لا بالنبوة والرسالة.

وفي الآية الرابعة جاء هذا البناء، ليؤكد أن مدعيه أجدر بنيل هذا المقام دون غيره، وقد جعله رديفاً لوصف آخر، وهو حفيظ، ليكونا لازمين لمن يتصدىٰ مقاماً هو سائله[1].

إن الوصف المتقدم أدعاه نبي الله يوسف «عليه السلام» عندما استخلصه الملك لنفسه، لكي يجعله ولياً علىٰ خزائن الأرض، ومن هنا يتبين أن للعلم الكثير دوراً في السياسة والتدبير.

وقد استعمل البناء استعمالاً مجازياً في الآية الأخيرة، عندما تعلق الوصف بالغلام، وهو بعد لم يكن أهلاً لأن يتلبس بهذا الوصف، والمراد ما سيكون بعد أن يكبر ويصبح أهلاً لمستودع علم الله، ومبلغ شرائعه. وقد فسر القرطبي العلم بالحلم، استجابة لآية أخرىٰ وصفته بالحليم[2]، وهو بعيد، لا من حيث اللغة، ولا من حيث الظهور القرآني. وقد قال تعالىٰ في الآية الثامنة والعشرين من سورة الذاريات " وبشروه بغلام عليم " أي عندما يكبر، يصبح له العلم الكثير الذي ينفع به البشرية، عندما يبلغهم الأحكام الإلهية والقيم الأخلاقية.

---

١. ينظر: الميزان ١١ / ٢٠٤، التحرير والتنوير ١٢ / ٨٢

٢. ينظر: تفسير القرطبي ١٢ / ٢٢٣

ذكر البقاعي أن الوصف بالعلم فيه مزيد مزية، لأنه كان خائفاً كخفاء أمر الملائكة عليه[1].

والمقصود بالغلام في آيتي الحجر والذاريات هو اسحق، أما المذكور في سورة الصافات " فبشرناه بغلام حليم " هو إسماعيل[2]، والسياق في الآيات يشهد بذلك من قبيل ذكر امرأته العقيم وغيرها، وربما التبس ذلك عَلَىٰ المفسر الكبير، فأوقع احد الوصفين عَلَىٰ الآخر ظاناً انه الغلام نفسه، وهو في غير محله.

واستعمال الحلم لإسماعيل، مع أن كليهما عليم، لمناسبة السياق، وهو استعداده لقبول الأمر الإلهي المتمثل بالذبح، وعدم جزعه، وهو لا يكون إلا إذا كان الحلم مترتب عَلَىٰ العلم[3].

و – بناء فعّال

يأتي هذا البناء للمبالغة والصناعة، نقول: علام لكثير العلم، ونجار لصاحب النجارة وقد ورد كلا المعنيين في القرآن، لكن الذي يقترن بالمادة اللغوية (ع ل م) هو الأول دون الثاني، وهناك

---

١. ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤ / ٢٢٧

٢. ينظر: نظم الدرر ٦ / ٣٢٦، وينظر: التحرير والتنوير ٢٣ / ٦٢.

٣. ينظر: ملاك التأويل ٢ / ٢٩١، وينظر: نظم الدرر ٦ / ٣٢٦.

من أرجع احد البنائين إِلَى الآخر، فالمبرد يرد الصناعة إِلَى المبالغة[1]، وكذا الرضي، أي: إن الفعل لما كثر وتكرر أصبح له كالآلة[2]، في حين عكس ابن طلحة الأمر، وجعل الصناعة هو الأصل وتبعه في ذلك الدكتور فاضل السامرائي[3].

وفي كلا الاستعمالين ثمة تكرار للفعل وكثرة، وهذا يقتضي المزاولة والتجدد كما يذهب السامرائي[4]. ولكن يبقى الكلام المتقدم من لوازم عالم الإمكان، فإذا ما أطلق الوصف عَلَى المجردات المحضة، سلب هذا اللازم منه، ولحظ فيه المعلوم، سواء أكان كلياً أم جزئياً، وعاماً أم خاصاً... ولا يخفى ان هذا البناء يعطي من المبالغة ما لا يعطيه البناء المتقدم، لذا لم نجده يطلق إلا عَلَى الله، ولم يكن متعلقه إلا الغيب. يقول العلامة المصطفوي: " والعليم: يستعمل في مورد يشار فيه إِلَى ثبوت صفة العلم وتثبته... والعلام: يستعمل في مورد يشار فيه إِلَى كثرة الإحاطة والعلم "[5].

قال تعالى:

﴿ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ سورة المائدة /

---

١. ينظر: المقتضب ٣ / ١٦١.

٢. ينظر: شرح شافية ابن الحاجب ٢ / ٢٥٨ – ٢٥٩

٣. ينظر: معاني الأبنية ١٠٨.

٤. ينظر: المصدر السابق ١٠٩.

٥. التحقيق في كلمات القرآن الكريم ٨ / ٢٥٥.

﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ سورة المائدة/ ١١٦.

استعمل البناء في الآية الأولى – في سياق مخاطبة الله أنبياءه عن ماذا إجابتهم أممهم حيال التبليغ، فأجابوا بنفي العلم عنهم، وإثبات العلم الكلي لله، وهو عَلَىٰ ما قيل نحو من التأدب مع الله (عزّ وجلّ)؛ لأنهم أعلم بما أجابوا[١]، وإثبات العلم له (عزّ وجلّ) بصيغة المبالغة فعّال يدل عَلَىٰ كماله في العلم[٢]، وإضافته إِلَىٰ الغيوب يكشف عن حق العلم الذي لا يوجد عند غير الله (عزّ وجلّ)[٣].

وهو يشعر بان علم من سواه ضعيف لا يرقىٰ إِلَىٰ مكنونات الغيب وخزائنه المستورة.

وفي الآية الثانية يعلق العلامة الطباطبائي في استعمال البناء مضافاً إِلَىٰ الغيوب بقوله: " ان العلم التام بجميع الغيوب منحصر فيه فما كان عند شيء من الأشياء وهو غيب عن غيره فهو معلوم لله سبحانه وهو محيط به ولازم ذلك أن لا يعلم شيء من الأشياء بغيبه تعالىٰ ولا بغيب غيره الذي هو تعالىٰ عالم به لأنه مخلوق محدود لا يتعدىٰ طور نفسه فهو علام جميع

---

١. ينظر: الميزان ٦ / ٩٨ – ١٩٩

٢. ينظر: روح المعاني: ٧ / ٧٢

٣. ينظر: الميزان ٦ / ٢٠٠

الغيوب ولا يعلم شيء غيره تعالىٰ بشيء من الغيوب لا الكل ولا البعض"[1].

وإذا كان الغيب يمثل الجانب غير المدرك للإنسان، أو الجهة الَّتِي لا تنفذ له حواسه وقواه المدركة، فان تعلق العلم الإلهي به بصورة المبالغة يشعر بنقص الأدوات الإدراكية للإنسان وعظمة الذات الإلهية.

والمبالغة منظور اليها من خفاء تلك العوالم عَلَىٰ سعتها عن علم الإنسان الذي اقتصرت يده عَلَىٰ ما في عالم الملك والشهادة المحاط بجدران الزمان والمكان.

ز – بناء فِعْل

يأتي هذا البناء وصفاً ومصدراً واسماً صريحاً مثل: مِلح ورزق – وهو عَلَىٰ غير قياس• – وذئب. والمستعمل مع المادة هو المصدر عِلْمَ وهو من المصادر غير القياسية للفعل الثلاثي، يدل عَلَىٰ الحدث المجرد. أو مجرد الحدث من غير تعرض لزمان[2]. وقد ورد في القرآن كثيراً.

---

١. الميزان: ٦ / ٢٤٦

•المصدر القياسي للثلاثي المفتوح الفاء، المكسور العين هو فَعْل. ينظر: أوضح المسالك ٢ / ٢٦٠. وينظر: شذا العرف / ١١٩

٢. ينظر: شرح التصريح ٢ / ٣.

قال تعالىٰ:

﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شيءٍ عِلْمًا ﴾ سورة الأنعام / ٨٠.

﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ سورة هود / ٤٦.

﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشيءٍ مِّنْ عِلْمِهِ ﴾ سورة البقرة / ٢٥٥.

﴿ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ سورة الأحقاف / ٢٣.

إن البناء المتقدم يعطي معنىٰ الحدث المجرد، فلا يخبر به عن الذات كما في عالم وعلامة وعليم، بل هو اسم معنىٰ تحصل به الذات معنىٰ من المعاني، وتطلق عن التقيد بالزمن.

يأتي المبنىٰ المصدري في سورة الأنعام ليدل عَلَىٰ المعنىٰ المطلق من كل جهة، فيسع كل شيء، أي إن الموجودات كلها تحت حيطة العلم الإلهي.

وقد جاء في سورة هود مرتبطاً في سياق النهي عن السؤال بغيره أي العلم في قصة نوح «عليه السلام» مع أبنه، فالذي لا يعلمه نوح «عليه السلام» ليس العلم المطلق بل هو العلم بخصوص ابنه، وتحقق إيمانه، وقد خصصه السياق عن أطلاقه بالحادثة، فان كان مؤمناً، فهو من أهلك، وأهلك لا سبيل إِلَىٰ لحوق العذاب وإدراكهم، أما إذا لم يكن مؤمناً فهو ليس من أهلك، وسيشمله

العذاب، وهذا هو العلم الذي لم يصل اليه النبي نوح «عليه السلام»[1].

وفي سورة البقرة جاء المبنى ليدل عَلَى المعلوم لا الحدث المجرد، وهو ما ذهب إليه جمع من الأكابر كالرازي[2] والالوسي[3] وابن عاشور[4].

وللعلامة الطباطبائي توجيه آخر، يحمل فيه العلم عَلَى المعنى المصدري، إذ يقول: " ان العلم كله لله ولا يوجد من العلم عند عالم إلا وهو شيء من علمه تعالى، ونظيره ما يظهر من اختصاص القدرة والعزة والحياة بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ للّهِ جَمِيعاً﴾ وقال: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للّهِ جَمِيعًا﴾ وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾[5]. والمتعين عندي هو المعنى المصدري؛ لأن عدم الإحاطة يعني الافتقار إِلَى العلم المستقل بالذات الذي يؤهلهم لبلوغ العلم الإلهي،، وأنى لهم ذلك، فعلمهم غيض من ذلك الفيض، وفي سورة الأحقاف جاء المبنى مع أداة القصر إنما – ليدل عَلَى أن أصل العلم لله «عزّ وجلّ» وما نعلمه بفيض منه «عزّ وجلّ»، وقد ذكر البناء في حوار النبي مع قومه، وهو يرشدهم ويوجههم

---

١. ينظر: الميزان ١٠ / ٢٢٦.
٢. ينظر: التفسير الكبير ٣ / ١٢، وينظر: تفسير أبي السعود ١ / ٢٤٨.
٣. ينظر: روح المعاني ٣ / ١٥.
٤. ينظر: التحرير والتنوير ٢ / ٤٩٦ – ٤٩٧.
٥. الميزان: ٢ / ٣٣٩ – ٣٤٠.

إِلَىٰ صلاح الأمور والعاقبة الحسنة، وهم ينـأون عنـه، ويطلبـون منه أن يأتيهم بالعـذاب، فعلق النبـي مقـترحهم بـالعلم الإلهـي الذي لا يحيط به احـد، وفي هـذا يقــول الطباطبـائي: " قصــر العلم بنزول العـذاب فيه تعالىٰ لأنه من الغـيـب الـذي لا يعلـم حقيقته إلا الله جل شأنه، وهو كناية عن انه«عليه السلام» لا علم له بأنه ما هو؟ ولا كيف هو؟ ولا حتىٰ هو؟... "[1].

وتعريف العلم بعد أداة القصـر يشعر بان العلم كله عند الله، ويحصل عليه غيره منه«عز وجل» بالإفاضة والإشــراق أو بالإعـداد والتمكين والتسخير، ومظهر العلم بالآية هو الأمور الغيبية الَّتِي لا تنال إلا بتعليم منه«عز وجل».

وهنا نكتفي عن أخذ المباني الأخرىٰ لهذه المادة؛ لأنهـا تخـرج البحث عن استقصاء الخصوصية الجامعة الَّتِي يظهر بها المفهـوم القرآني، وقد سلك أوجهاً متعـددة، وتقمـص صـوراً متنوعـة، فأعطىٰ من الدلالات الصـرفية الشـيء الكثـير للـنص، لـذلك أبعدنا بناء عالمين وأعلام وعلامات، وركزنا عَلَىٰ حركة المفهـوم الواحد الذي يلبس أبنية متعددة.

---

١. نفسه ١٨ / ٤١٥.

المحــور الثالث

مراتــــب• المفهــــــــوم

كان من المتوقع بعد أن عالجنا التصاريف البنائيـة للمفهـوم، والجهات الاشتقاقية الَّتِي يركن اليهـا في الاسـتعمال العـربي، أن نركز عَلَىٰ الجهات المشتركة والجهات المختلفة للمفهوم من حيث النسبة والاطلاق.

إن العلم من المفاهيم الَّتِي كثر ذكرها في القرآن الكريم؛ لأنـه يمثل ركناً شديداً تتكئ عليه الحياة في نموها وتطورها، فالطفـل ينمو وفي جنبيه بذرة الاستقبال الواقع الخارجي، واكتساب كـل ما من شأنه أن يعرفه عَلَىٰ الحياة، ويفهمـه الحقيقـة والواقـع...، وبمرور الزمان تتراكم صور الأشـياء في ذهنـه، ويقـوم بفرزهـا وتحليلها، ومـن ثـم تتكشـف أسـرار وأسـرار خفيـت عليـه، وغابت عنه ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُم من بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شـيئًا ﴾ سورة النحل / ٧٨. ولما كانت هـذه المراحـل أي: التعـرف إِلَىٰ الأشـياء من حولـه تحصـل بالتـدريج، وبشـكل عفـوي، حـدا ببعض الباحثين أن يؤكد خلو العلم من أي تعريـف؛ لأنـه مـن أعرف الأشـياء، ولا يوجد شـيء أعـرف منـه حتىٰ يوضـحه

• المراتب اما ان تكون طولية تشمل الموجودات جميعاً، واما ان تكـون عرضـية تشمل موجودات عالم من العوالم، والمراد هنا الاول دون الثاني.

ويرفع إبهامه[1].

نعم، بعدّ هذا الشيء من أوضح الأشياء إِلَىٰ الإنسان، لا يعني أن ننكر الحقول المعرفية الَّتِي لا يستطيع الإنسان نيلها أو يحصل عليها بحكم وضعه ومرتبته وخصوصاً تلك العلوم الَّتِي تحتاج إِلَىٰ بذل الجهد وتحمل المشاق في تحصيلها، مما يترتب عليها تمايز الأشخاص وتخصصهم في نحو من أنحاء شؤون الحياة، وهذا بحد ذاته يعد حاجة ماسة لوضع حقول معرفية تجزأ من خلالها العلوم وتقسم عَلَىٰ أقسام لتنهض ثقافة رتيبة، ونسق منظم يسهل عَلَىٰ المتلقي التقبل والربط بين موضوعات كل علم، فمثلاً كان النحو والصرف يدرسان جنباً إِلَىٰ جنب، ومثل هذه الدراسة تفوت عَلَىٰ الطالب معرفة موضوع كل منهما، ولكن استجابة لمتطلبات الحضارة والعمران، وانفتاح العقول وسعيها وراء الجدة والابتكار دفعها إِلَىٰ التقسيم، فأصبح – مثلاً – علم النحو يهتم بالتركيب، وعلم الصرف يهتم بالمفرد وأحكام بنائه.

يقول محمد تقي مصباح: " أن تقسيم العلوم وتبويبها كان من اجل سهولة التعلم والتأمين الأفضل لأهداف التربية والتعليم "[2].

---

١. ينظر: المنهج الجديد في تعليم الفلسفة ١ / ١٤٠، والتوحيد ١ / ١٩٥.
٢. المنهج الجديد ١ / ٦٩.

وقد رافق هذا التقسيم – كما هو واضح – مجموعة من المحددات، استقل في ضوئها المعلوم وتمايز عن غيرها، فاحتاج إِلَى التوضيح (التعريف) لأن من لوازم التقسيم هو التمايز والاتفاق.

وبالجملة فان العلم من حيث إطلاقه غني عن التعريف؛ لأنه من شؤون الإنسان، ولكن من حيث تقسيمه وتبويبه يحتاج إِلَى توضيح المعلوم المتعلق به، وبمعنى هو توضيح لمصاديقه وخصائصها، ومن هنا كثر الحديث عن هذا المفهوم من جهة العالم والمعلوم، فهناك ذوات متباينة كالذات الواجبة، والملائكة المجردة، والموجودات المودعة في مهد المادة، سواء أكانت عاقلة أم غير عاقلة، متحركة بالإرادة أم بغيرها، ولكل هويته وحقيقته، فينسب إليه المفهوم، من دون أن يكون ثمة حيف في الإطلاق وآيات القرآن ناطقة بذلك. قال تعالى:

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ ﴾ سورة البقرة / ٢٩.

﴿ أَنَّ اللهَّ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ ﴾ سورة البقرة / ٢٣١.

﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شيءٍ عِلْمًا ﴾ سورة الأنعام / ٨٠.

﴿ وَاللهُّ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة البقرة / ٢٦١.

﴿ إِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ سورة لقمان / ٣٤.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ سورة الأنعام / ١١٩.

﴿ وَاللهُّ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ سورة البقرة / ٩٥.

﴿ فَإِنَّ اللهَّ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ سورة آل عمران / ٦٣.
﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ هود / ٥.
﴿ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَّ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ ﴾ سورة يونس / ١٨.
﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ ﴾ سورة الرعد / ٣٣.
﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ سورة الكهف / ١٢.
﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ ﴾ سورة سبأ / ٢١.
﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ ﴾ سورة البقرة / ١٤٣.
﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ سورة البقرة / ٣٢.
﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ سورة العنكبوت / ٣٢.
﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ سورة الإنفطار/ ١٢.
﴿ قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشرك بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ سورة الحجر / ٥٣.
﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة يوسف / ٥٥.
﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ سورة النساء / ١١٣.

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ سورة الكهف / ٦٥.
﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ ﴾ سورة آل عمران / ١٨.
﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا ﴾ سورة آل عمران/ ٧.
﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ سورة الرعد / ٤٣.
﴿عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرونَ ﴾ سورة الصافات / ١٥٨.
﴿ خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ سبأ/ ١٤.
﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرتْ ﴾ سورة التكوير / ١٤.
﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ سورة الإنفطار / ٥.
﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ العنكبوت / ٤٣.
﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ سورة فاطر / ٢٨.
﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ سورة الشعراء / ٣٧.
﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ سورة البقرة / ٦٠.
﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ سورة يوسف / ٥١.
﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ الروم / ٣٠.
﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ سورة الشعراء / ٣٨.

﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم منَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ سورة النجم / ٣٠.
﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ سورة النــور/ ٤١.

قبل أن نخوض في غمار البحث، لابد أن نقدم توضيحاً حول قبول مفهوم العلم للشدة والضعف، والوضع فيه.

لا يخفى عَلَىٰ كل فطن أريب ان القرآن أكد قبول المفهوم للشدة والضعف، وثبته، أي: القول بتفاوت درجات العلم، ولذلك نجده ينفي العلم في بعض الموارد، ويمدح (العالمون) ويذم غير العالمين في موارد، وما هذا إلا لأن العلم اسم معنىً تنال كل ذات منه بمقدار طلبه والسعي لتحصيله، وقد قال الله (عَزَّ وَجَلَّ):

﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ سورة يوسف / ٧٦.

ولو لم يكن للعلم درجات، لما ظهرت الفوقية، وانقطع التفضيل، ومحقت المبالغة، ولم يبق للمدح شيء.

إن هذا الأمر بديهي، لا ينكره اثنان، فهو كالحديقة الغناء يقطف منها الجائع ما يرفع حاجته، وفي بعض الموارد لا يوجد حد للكفاف، إذا كان المعلوم شريفاً، وفي تحصيله كمال للرائد وفوز للطالب.

الأمر الآخر الذي يجب التنبيه عليه هو الوضع، أي وضع اللفظ بإزاء الأشياء، أكان لحاظ الوضع متعدداً فيه، فيكون وضع اللفظ إزاء الذوات الَّتِي ينسب إليها مختلفاً في كل مرة، كما

هو حال المشترك اللفظي أم ان المعنى واحد للجميع، والاختلاف في خصوصية المصداق؟.

يذكر ابن القيم ثلاثة أوجه لتفسير الاشتراك الحاصل بين الألفاظ كالسميع والبصير والعليم...

الأول يفسرها بالحقيقة والمجاز، فهي مجاز للرب، حقيقة للعبد، والقول منسوب إِلَى غلاة الجهمية. ولم يختلف الوجه الثاني عن الأول، سوىٰ التغاير في النسبة، فهو حقيقة للرب، مجاز للعبد، وهذا قول أبي العباس الناسي.

والوجه الثالث يقول: إنها حقيقة فيهما، وقد نسبه إِلَى أهل السنة وعده صواباً وذكر أن اختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجهما من كونهما حقيقة فيهما، لأن لكل شأنه وخصوصيته[1]، ومن قبله الغزالي ذكر ان الاختلاف كائن في الذوات، وللذات الإلهية خصوصيتها[2].

ولكن – هنا – تواجهنا عقبة كؤود: مفادها ان الوضع لا يراعىٰ فيه خصوصية المصداق، بل توضح الألفاظ للدلالة عَلَى المعاني، فتصبح بمرور الزمن بالمواطأة والاتفاق تحمل مدلولاً محدداً في ذهن الجماعة، يستحضر المعنىٰ، إذا ما لاح لفظ في الأفق. والمعروف أن اللغة العربية أسبق من القرآن، والوضع

---

١. ينظر: بدائع الفوائد ١ / ١٣٦ – ١٣٧، وينظر: شرح أسماء الله ٦٨.

٢. ينظر: المقصد الأسنىٰ ٣٣.

متقدم بزمن عَلَىٰ نزوله، لذا نحدس بان الواضح لم يلحظ في وضعه غير الحاجة الملحة للتفاهم والتفهم، وهذا كائن بين أبناء البشر، ولا يوجد ضرورة للتجاوز إِلَىٰ غيره، وقد جرىٰ القرآن في استعمالاته واختياراته الألفاظ المتواطئة فيما بينهم، لأنه نزل لهم، وقد اقتضىٰ التفهيم والتواصل أن يكون الاتحاد في التسمية بين الأداتين.

نعم، قد يقال إن هناك ألفاظاً قد اكتسبت بعداً قرآنياً وإسلامياً أكثر مما هي عرفية كالصلاة والصوم والزكاة وغيرها.

لكن العلاقة بين المعنىٰ الأول والثاني لم تزل قائمة، ولم تمسخ أصلاً، ومن ثم يكون تفسير لفظة عليم في الموارد المتعددة بمعنىٰ مختلف غير مبرر.

لأن الوضع يلحظ فيه المعنىٰ، وليس بإزاء نسبته إِلَىٰ المصداق، لذا لا مسوغ للتحرج من البيان، وأن كانت المصاديق متعددة، والذوات متباينة.

ولكن ما ينبغي الالتفات اليه هو نوع الوضع، أكان للمعنىٰ الجزئي أم للمعنىٰ العام وخصوصاً في أسماء المعاني الَّتِي تضاف إِلَىٰ الذوات.

فمثلاً ما هو الملاك في وضع لفظة النار؟ أهو للنار الخارجية الَّتِي تحسها وتشعر بحرارتها وتبصر لونها أم هو لتحقق الخاصية الَّتِي متىٰ وجدت حمل هذا اللفظ عليها؟

يذهب الفيض الكاشاني إِلَى أن هذه الخاصية الموجودة في الأشياء هي المعيار في الإطلاق، وضرب لها مثل القلم، وخاصته نقش الصور في الألواح، والميزان وخاصته التوزين، وحيثما وجدت هذه الخاصية، صح الإطلاق وكان الاتصاف بها حقيقياً، سواء أكان محسوساً أم معقولاً[1].

وللعلامة الطباطبائي تقريب آخر في تقرير المطلب، يستمده من القرآن إذ يقول: " ان الأنس والمادة (كما قيل) يوجبان لنا أن يسبق إِلَى أذهاننا عند استماع الألفاظ معانيها المادية أو ما يتعلق بالمادة فان المادة هي الَّتِي يتقلب فيها أبداننا وقوانا المتعلقة بها ما دمنا في الحياة الدنيوية، فإذا سمعنا ألفاظ الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام والإرادة والرضا والغضب والخلق والأمر كان السابق إِلَى أذهاننا منها الموجودات المادية لمفاهيمها.."[2].

ثم يقول: "وهذا شأننا في جميع الألفاظ المستعملة، ومن حقنا ذلك، فان الذي أوجب علينا وضع الألفاظ إنما هي الحاجة الاجتماعية إِلَى التفهم، والاجتماع إنما تعلق به الإنسان ليستكمل به في الأفعال المتعلقة بالمادة ولواحقها، فوضعت الألفاظ علائم

---

١. ينظر: تفسير الصافي ١ / ٦٧ – ٦٨.
٢. الميزان ١ / ١٢ – ١٣.

لمسمياتها الَّتِي نريد منها غايات وأغراضاً عائدة إلينا"[1]. ثم ينبه القارئ عَلَىٰ الاختلافات الَّتِي تلحق المصاديق المادية بقوله: " وكان ينبغي لنا أن ننتبه أن المسميات المادية محكومة بالتغير والتبدل بحسب تبدل الحوائج في طريق التحول والتكامل، كما أن السراج أول ما عمله الإنسان كان إناء فيه فتيلة وشيء من الدهن تشتعل به الفتيلة للاستضاءة به في الظلمة، ثم لم يزل يتكامل حتىٰ بلغ اليوم إِلَىٰ السراج الكهربائي ولم يبق من أجزاء السراج المعمول أولاً الموضوع بإزائه لفظ السراج شيء ولا واحد... فالمسميات بلغت في التغير إِلَىٰ حيث فقدت جميع أجزائها السابقة ذاتاً وصفة والاسم مع ذلك باقٍ، وليس إلا لأن المراد في التسمية إنما هو من الشيء غايته، لا شكله وصورته، فما دام غرض التوزين أو الاستضاءة أو الدفاع باقياً كان اسم الميزان والسراج والسلاح وغيرها باقياًعلىٰ حاله. فكان ينبغي لنا أن نتنبه أن المراد في صدق الاسم اشتمال المصداق عَلَىٰ الغاية والغرض لا جمود اللفظ عَلَىٰ صورة واحدة "[2].

إن أطروحة الطباطبائي والتي قبلها لا اختلاف بينهما سوىٰ الصياغة وإلا فالمآل واحد، وهما جيدتان يمكن أن نفيد منهما الشيء الكثير في معرفة الحقائق، وخصوصاً ما كان الاستعمال

---

١. الميزان ١ / ١٢ – ١٣.

٢. السابق نفسه ١ / ١٢ – ١٣.

القرآني يجعلها لعوالم غير عالمنا، ولذوات غير ذواتنا، وهي لم تخرج عن الاستعمال العربي ما دام الذوق لا ينكره، والتحولات الَّتِي تطرأ عَلَىٰ المسميات المادية لا تخرجه عن حده ومفهومه كما في لفظة السراج والميزان.

ولا يخرج مفهوم العلم عن التحليل المتقدم، فهو لا يعني أكثر من حضور المعلوم لدىٰ العالِم، سواء أكان بنفسه أم بصورته[1] ولا يرتفع هذا المعنىٰ عند نسبته إِلَىٰ الله (عَزَّ وَجَلَّ) أو إِلَىٰ الملائكة، ولكن خصوصية المصداق تفرض عليه قيداً زائداً يتمثل بالبعد الوجودي أو المرتبة الوجودية الَّتِي يكون معها المفهوم شديداً أو ضعيفاً لا غير، فهو هو، وهو غيره•. يقول الطباطبائي:

" الذي نفهمه من قولنا ((علم زيد)) وقولنا ((علم الله)) معنىٰ واحد، وهو انكشاف ما للمعلوم عند العالِم، غير إنا نعلم أن علم زيد إنما هو بالصورة الذهنية الَّتِي عنده، وأن الله سبحانه يستحيل في حقه ذلك، إذ لا ذهن هناك، وهذا ليس إلا خصوصية في المصداق، وهي لا توجب تغيراً في ناحية المعنىٰ بالضرورة، فإذن المفهوم مفهوم واحد، وأما خصوصيات

---

1. ينظر: المنهج الجديد ١ / ١٤١.

•فهو هو من حيث المفهوم وإطلاق اللفظ، أما هو غيره، فمن حيث المصداق الذي يقبل الشدة والضعف.

المصاديق فغير دخيلة في المفهوم البتة "[1].

وخصوصية المصداق المذكورة سالفاً تقتضي التمايز، ومن ثم تفضي إِلَىٰ التقسيم، وبمعنىٰ أن الذي تكون المعلومات بنفسها غير مستورة عنه، ولا خافية عليه، يختلف عن الذي تكون معلوماته متوقفة عَلَىٰ دخالة الآلة والانفعال بالواقع الخارجي، والذي علمه فرع لوجود الأشياء يباين من الوجود والأشياء فرع لعلمه.

والآن بعد أن علمنا أن المفهوم واحد عند نسبته إِلَىٰ الأشياء، نقرأ الآيات المتقدمة في ضوء خصوصية المصداق، ولا شك ان القارئ يرصد انتظام الآيات في حقول، يضم كل حقل الجهة الَّتِي ينسب إليها المفهوم.

ففي المجموعة الأولىٰ من الآيات نجد أن العلم يعزىٰ إِلَىٰ الله، وقد تنوع اللباس اللفظي الذي ظهر به العلم الإلهي، بحسب السياقات الَّتِي يراعىٰ فيها الدقة في الاختيار والبراعة في التعبير، لكن ما يميز العلم الإلهي في هذه الآيات انه ليس عَلَىٰ سمت واحد من الظهور، ففي بعضها جاء مفرداً، ودل عَلَىٰ إحاطته بكل شيء.

أي إن كل الأشياء معلومة له«عَزَّوَجَلَّ»، وفي آيات أخرىٰ ظهر مقترناً باسم من أسمائه: الواسع والخبير، ليدل عَلَىٰ أن لهذا

---

١. مجموعة رسائل العلامة الطباطبائي ٥٨.

المركب مزية زائدة يكتسب بها العلم معنىٰ أوسع، ففي السعة ينفي الحدود والقيود للعلم الإلهي، فهو الذي يسع كل شيء بعلمه، وفي الخبير يتعرف عَلَىٰ دقائق الأمور ولطائفها، وتأخر الخبير – في الاستعمال – يدل عَلَىٰ شدة العلم الذي لا تضيع عنده بواطن الأشياء وخفاياها.

وقد جاء في آيات متعلقاً بالمعلومات الجزئية، وهو من مصاديق علمه الذاتي كعلمه بالمهتدين والظالمين والمفسدين، لاقتضاء السياق التصريح بالاعلمية عَلَىٰ غيره، لكي يشعر المتلقي بمراقبة الله«ﷻ» في كل لحظاته وحركاته وسكناته، وفي آيتين منها نجد أن السياق خرج عن رتابته، وعدل عن نمطيته، فبدلاً من أن يُثبت العلم الإلهي الذي يسع كل شيء، يُنفىٰ عن الله«ﷻ» بصورة المضارع مع الحرف (لا) ليسجل نمطاً أسلوبياً متفرداً، جعل فيه عدم العلم كناية عن عدم الوجود، لأن العلم فرع الوجود، فإذا لم يكن ثمة وجود – والوجود كله من الله – فلا معلوم، وهذا نحو من التوجيه إِلَىٰ ذهن المتلقي، لأن يدرك أن معلومات الوجود كلها حاضرة لديه، فإذا ما أدعىٰ أعمىٰ إن هناك شفعاء أو آلهة مع الله، فهو لا محالة من الأمور الَّتِي لا يتعلق بها علم الله«ﷻ»، لأنها غير موجودة. وهذا من روائع التعبير القرآني.

ومن النمط الأخير منَ المجموعة الأولىٰ نظفر بنحو من العلم

يختلف عن كل الآيات المتقدمة، لأنه يتعلق بالفعل الذي وقع أو سيقع، ويترتب عليه بعد ذلك أن يكون الواقع معلوماً لـه«وَجَلَّ»، وقد سمي بالعلم في مقام الفعل بعد الايجاد، فالله«وَجَلَّ» في علمه الذاتي يعلم أي الحزبين أحصىٰ، ويعلم من يتبع الرسول، ويعلم المجاهدين، لكنه أراد أن يكون علماً ومعلوماً في مقام الفعل[1].

وهذا النحو من العلم كثيراً ما يقع في مورد الاختبار والامتحان.

إذاً مما تقدم يتبين: ان العلم الإلهي نوعان – كما هو ظاهر الآيات القرآنية –.

الأول هو الذاتي أي إن ذات الله«وَجَلَّ» أحاطت علماً بكل شيء، سواء أكانت الأشياء موجودة أم غير موجودة، وفي ذلك يقول الإمام الصادق«عَلَيْهِ السَّلَامُ» " لم يزل الله«وَجَلَّ» ربنا والعلم ذاته ولا معلوم والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر... فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه عَلَىٰ المعلوم... "[2].

والثاني فعلي، أي إن ذات الله«وَجَلَّ» عالمة في مقام الفعل، فكما أن الأشياء الموجودة في الخارج هي فعل الله«وَجَلَّ»، هي معلومة له أيضاً، وهو يختلف عن الذاتي في جملة أمور ذكرت في كتب

---

١. ينظر: التوحيد ١ / ٢٧١.
٢. أصول الكافي ١ / ١٢٨.

العقائد[1].

وفي ضوء التمايز بين العلمين صحة القسمة، لكن هذا التمايز ليس عَلَىٰ نحو التباين، بل هو تمايز في خصوصية المعلوم لا العلم، أي انه واحد، وله مرتبتان، الأولىٰ في مقام الذات والثانية في مقام الفعل، وهاتان المرتبتان، وإن كانتا مختلفتين من جهة يبقىٰ مفهوم العلم واحداً بالنسبة إليها، فهو حقيقة واحدة ذات مراتب مختلفة، يرجع ما به الامتياز إِلَىٰ ما به الاشتراك، يشتركان في جهة العلمية، ويختلفان في الشدة والضعف، ولا يخفىٰ ان العلم في مقام الذات أشد مما هو في مقام الفعل، لأن الأول غير متناه بخلاف الفعل الذي يكون متناهياً.

والطائفة الثانية من الآيات تتحدث عن علم الملائكة، وهو علم يفاض عليهم من العلم الإلهي بنحو يليق بتجردها، فلا ذهن لهم للتعقل ولا آلة ينتقل بموجبها العالِم الخارجي إليها، إن نصيبهم من العلم تقيده درجتها الوجودية، ومقامهم الامري، لذلك خفي عليهم وجه الحكمة الباعث عَلَىٰ تنصيب الإنسان خليفة لله «عَزَّوَجَلَّ»...

وعلم الملائكة يشترك مع علم الله «عَزَّوَجَلَّ» بالمفهوم، ويختلف عنه بخصوص المصداق، فمصداق العلم الأول هو الكمال الذي لا نقص معه من جميع الجهات، فينسب له عَلَىٰ نحوٍ أشرف

---

١. ينظر: التوحيد ١ / ٢٦٩.

وأعلىٰ وأتم بما ينسجم مع ما عليه الذات الإلهية من الوجوب، والثاني هو تعليم من عليم لذا هو دونه بالمرتبة، ولو كان نفسه، لكانت الملائكة تعلم كل شيء، ولا تخفىٰ عليها خافية... وهذا لم يكن لضعفها وحاجتها إِلَىٰ ما يقوم وجودها وهو الخالق المدبر.

وإذا علمنا أن للملائكة مراتب ودرجات، فلا غرو أن ينال العالي الدرجة السامية من العلم. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الصافات / ١٦٤.

الطائفة الثالثة من الآيات تنسب العلم إِلَىٰ موجودات مجردة، لكن تجردها ليس في درجة الملائكة، ومرتبتها دون مرتبة الملائكة، فهما من عالمين يتقدم احدهما عَلَىٰ الآخر، ولكن يبقىٰ لعلمها منزلة كبيرة يستطيع من خلاله احد العفاريت أن يحضر عرش بلقيس، من دون أن يحتاج إِلَىٰ وسيلة خارجية لإدراك المعلوم، فهي تدرك – عَلَىٰ وفق مرتبتها – الأشياء بحضورها عندها، والعلم هنا له حدود أيضاً، لا يستطيع تجاوزه إِلَىٰ مغيبات الأشياء، وفي قصة سليمان «عليه السلام» ما يؤكد ذلك.

قال تعالىٰ:

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ سبأ / ١٤.

والجن كالملائكة يتفاوتون فيما بينهم، فمنهم المؤمنون ومنهم

دون ذلك، ولا شك ان المؤمن بحكم إيمانه ومنزلته ينال من العلم ما لا ينال غيره.

وإذا ما انتقلنا إِلَىٰ الطائفة الأخرىٰ، سنجد أن العلم ينسب إِلَىٰ الإنسان، ولأن الإنسان هو محور القرآن، ظهرت مراتب العلم الذي يعزىٰ إليه بوضوح، فهناك علم عال مصدره ومنشؤه التعليم الإلهي، ومنه علم الأنبياء، ولما كان الأنبياء يتفاوتون فيما بينهم بالمنزلة والدرجة الوجودية، تفاوت العلم الذي ينسب إليهم، ولا شك أن أنبياء أولي العزم ينالون من العلم الدرجة العليا، ورئيسهم وإمامهم الحبيب المصطفىٰ «صلى الله عليه وآله وسلم».

قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ البقرة / ٢٥٣، ثم يلحق بأولي العزم الأنبياء الآخرون.

ثم تأتي درجة الأولياء، ومنهم العبد الصالح في قصته مع النبي موسىٰ «عليه السلام» ووصي سليمان، وغيرهم، بعد ذلك يأتي دور العلماء الَّذِينَ مدحهم الله في كتابه، كالراسخين في العلم.

والعلماء الَّذِينَ يخشونه «عز وجل»، والذين يشهدون له بالعلم مع الملائكة، والذين يعقلون الأمثال القرآنية، ولا يزال يتدرج العلم في نسبته إِلَىٰ الذوات، حتىٰ يصل إِلَىٰ مرتبة لا ينال مكتسبه مزية ثناء أو منقبة مدح، لاستواء الناس فيه جميعاً، وهو أدنىٰ أنحائه، بل قد نجد العكس في آيات قرآنية كثيرة، كالذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم غافلون عما وراءها، ينالون الذم

والتوبيخ. والذي لا يريد الحياة الدنيا هو والجاهل سواء.

إن العلم المتقدم عَلَىٰ تفاوته بين الأشخاص، ليس عَـلَىٰ نحـو واحد حتىٰ الراسخ فيه، والممدوح عليـه، بـل يختلـف بحسـب متعلقه، فان كان متعلقه دُرراًمن عالم الغيب استغنىٰ عن دخالـة الذهن، وتفعيل الآلة، لترتب الأثر مباشـرة كـما في علـم خليفـة الله، ووصي سليمان وعلم العبد الصالح وعلم عيسىٰ «عليه السلام»...

وإن كان علماً يحتاج فيه إِلَىٰ نظر وتحصيل، فهو – بلا شـك – يحتاج إِلَىٰ دخالة الذهن لإدراك المفاهيم، وتحليلهـا، وتركيبهـا في قضايا لسهولة التعلم والتعليم.

ولا يخفىٰ عَلَىٰ الأريب ان حصول العلم مع فقـدان الواسـطة لا يكون إلا بنحو من التجرد والتعلق بعالم الغيب، وهو أشـرف وأسمىٰ من النحوً الآخر من العلم؛ لأنه لا يتخلـف، ولا يقبـل الخطأ ولا يعتريه سهو ولا نسـيان. وقـد ظهـر في كـلا العلمـين مراتب، فكما أن العلم الكسبي والتحصيلي يشـتد ويقـوىٰ عنـد الإنسان المتوجه إِلَىٰ طلب العلم، ويضـعف عنـد البليـد الخامـل الذي لا تصور له إلا اللهو واللعـب ! يشـتد عنـد المقـربين مـن الأنبياء والمرسلين، ويضعف عندما تُـفك عـرىٰ التعلـق بـالملأ الأعلىٰ.

وفي آخـر المـوارد نظفـر بنسـبة العلـم إِلَىٰ الطـير في ضـمن المذكورين في الآية القرآنية، ولا يخفـىٰ ان الصـلاة والتسـبيح في

الآية القرآنية هما فرع العلم، ومن دون علم لا يكون هناك تسبيح ولا صلاة، وقد اختلف في العلم هذا نظراً لنسبته إِلَىٰ موجود غير عاقل – بحسب النشأة المادية – فبعضهم قال أنه محمول عَلَىٰ الاستعارة التبعية، أي " انه يشبه دلالة كل واحد من المذكورين عَلَىٰ الحق بلسان الحق والمقال وميل كل منهم إِلَىٰ النفع اختياراً أو طبعاً بعلم التسبيح والصلاة فيطلق عَلَىٰ كل واحد من تلك الدلالة والميل اسم العلم عَلَىٰ سبيل الاستعارة ويشتق منه لفظ علم "[١]. وبعضهم حملها عَلَىٰ الحقيقة، ويراد به مطلق الإدراك، أي: إن الله (عز وجل) ألهمها ذلك[٢].

وقد ربط العلامة الطباطبائي بين العلم والوجود عند تفسير الآية ٤٤ من سورة الإسراء بقوله: " كلامه مشعر بان العلم سار في الموجودات مع سريان الخلقة فلكل منهما حظ من العلم عَلَىٰ مقدار حظه من الوجود، وليس لازم ذلك أن يتساوىٰ الجميع من حيث العلم أو يتحد من حيث جنسه ونوعه أو يكون عند كل ما عند الإنسان أو يفقه الإنسان بما عندها من العلم قال تعالىٰ حكاية عن أعضاء الإنسان:

﴿ قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شيءٍ ﴾ فصلت / ٢١.

وقال: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا

---

١. روح المعاني ١٨ / ٥١٧.

٢. ينظر: نفسه، وينظر: التفسير الكبير ٨ / ٤٠٢ – ٤٠٣.

أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ ...

وإن كان كذلك فما من موجود مخلوق إلا وهو يشعر بنفسه بعض الشعور وهو يريد بوجوده إظهار نفسه المحتاجة الناقصة الَّتِي يحيط بها غنىٰ ربه وكماله لا رب غيره فهو يسبح ربه وينزهه من الشريك وعن كل نقص ينسب إليه[1]

وقد جعل العلامة المصطفوي العلم فرع الحياة بقوله:

" فالجامد ما دام فيه الحياة وقواها فعليه، أي قوة الاستمساك والتجاذب بين الأجزاء وما يلحقها، يلازمها العلم الحضوري، أي الحضور والإحاطة عَلَىٰ الأجزاء في مرتبة حياته، وكذلك النبات إذا كان له نماء وطراوة وحياة في عالمه ولقواه فعلية: فهو عالم، أن الحياة فيه تلازم الحضور والإحاطة عَلَىٰ الأجزاء وعلىٰ ما يلحقها، وهذا العلم يوجب إدارة أموره وتدبير قواه وتأمين النظم بين أجزائه، وكل هذا بمقتضىٰ مرتبته ونصيبه من الحياة الموجودة. ويشتد العلم كلما اشتد نور الحياة مرتبة فمرتبة[2]". ثم يقول: " ان الحياة وقواها تشتد وتزيد وتتجلىٰ قوية في مرتبة الحيوان[3].

إن هذين النصين يؤكدان اشتراك الموجودات جميعاً في نيلها

---

١. الميزان ١٣ / ١٠٧ – ١٠٨.

٢. السابق نفسه ٨ / ٢٥٢.

٣. التحقيق في كلمات القرآن الكريم ٨ / ٢٥٢.

حظاًمن الشعور والإدراك في نفس الأمر والواقع، سواء أدركه الإنسان كما في فهم سليمان منطق الطير، وفقه لغة النمل، وعلم النبي بتسبيح الحصىٰ الَّتِي في يديه أم لم يدركه، فهو أمر كائن، احتجب عن القابعين في سجن الدنيا، والمحتجزين في أقفاص المادة، لأن الموجودات من حيث حضورها عند الله مدركة شاعرة، وإذا ما اشتدت حركة الإنسان في سيره نحو الله وطهرت سريرته، ارتفعت عنه الحجب، وإدراك معنىٰ تسبيح الموجودات وصلاتها.

مما تقدم يتضح: إن العلم من حيث هو مفهوم ينسب إِلَىٰ كل مرتبة من مراتب الوجود، وينال كل منه بحسب سعته ودرجته الوجودية، فالله «ﷻ» ينسب إليه هذا المفهوم، وهو قاصر من أداء ما وراءه لأن الكل مستفاد منه، ومخلوق له، وتحت ملكه وقهاريته، حتىٰ هذا المفهوم لولا الله لم يكن هناك سبيل لظهوره ومعرفته. وينسب إِلَىٰ مرتبة الملائكة، وهو نحو من حضور الأشياء لديها، ولولا التعليم الإلهي، لم يكن ثمة علم، وهناك علم للجن وهو دون علم الملائكة.

وعلم الإنسان يختلف عن العلمين السابقين من حيث المقام والمرتبة الوجودية فمنهم من يعلّم الملائكة، ومنهم من لا يستحق عليه إطراء كعلم العوام بأمور حياتهم.

ولا يخفىٰ ان مرتبة الإنسان الوجودية هي فوق مرتبة

الملائكة؛ لأن فيه تلك الوديعة الَّتِي هي من سنخ الله«ﷻ»، وتقبل لأن تكون مظهراً لله«ﷻ» في جميع أسمائه.

وقد تبين كيف ان الخليفة تحمل التعليم الإلهي الذي لم يسع مرتبة الملائكة أن تتحمله، فوقعت ساجدة له، خادمة بين يديه، وما ذلك إلا لأن حقيقته فوق حقيقتها، ومرتبته فوق مرتبتها.

إنَّ الانتساب إِلَىٰ كل هذه الجهات لا يجعل المفهوم متبايناً، بل هو واحد، ولكن يختلف من مرتبة إِلَىٰ أخرىٰ بالشدة والضعف، وفي مفهوم الشجاعة والكرم ما يدلنا عَلَىٰ ذلك.

المصـــــادر :

١ – القرآن الكريم.

٢ – الأدوات النحويـة في كتـب التفسـير، د. محمـود احمـد الصغير، دار الفكر، دمشق، ط ١، ٢٠٠١م.

٣ – أساليب النفـي في القـرآن، د. احمـد مـاهر البقـري، دار المعارف، ط ٢، ١٩٨٤م.

٤ – أصول الكافي، محمد بن يعقوب الكليني، دار الأسـرة – ايران، ط ١، ١٣٧٦ هـ.

٥ – الإعجاز الصـرفي في القـرآن الكـريم، د. عبـد الحميـد احمد هنداوي، المكتبة العصـرية، ط ١، ٢٠٠١م.

٦ – إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيـي الـدين الـدرويش، مطبعة سليمان زادة، ط ١، ١٤٢٥هـ.

٧ – أفعـل التفضـيل وأحسـن التمثيـل في محكـم التنزيـل، خضـر موسـى محمـد حمـود، عـالم الكتـب – بـيروت، ط ١، ٢٠٠٥م.

٨ – أوضـح المسـالك إِلَى ألفيـة ابـن مالـك، ابـن هشـام الأنصاري، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط ٥، ١٩٦٦م.

٩ – بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزيـة، ضـبط نصـه وخـرج آياته احمد عبد السلام، دار الكتب العلمية – بيروت.

١٠ – البيان في تفسير القرآن، أبـو القاسـم المـوسي الخـوئي،

مطبعة العمال المركزية – بغداد، ١٩٨٩م.
١١ – التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، مؤسسة التاريخ – بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م.
١٢ – التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، ط ١، ١٣٨٥ هـ.
١٣ – تفسير أبي السعود المسمى ارشاد العقل السليم إِلَى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط ٤، ١٩٩٤م.
١٤ – تفسير الصافي المولى محسن الكاشاني، تحقيق محسن الحسني الاميني، دار الكتب الاسلامية، ايران، ط ١، ١٤١٩ هـ.
١٥ – تفسير القرآن الكريم، محمد بن إبراهيم الشيرازي، تصحيح محمد خواجوي، انتشارات بيدار قم.
١٦ – التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ٢٠٠٨م.
١٧ – التوحيد بحوث في مراتبه ومعطياته، كمال الحيدري، دار الصادقين للطباعة والنشر، ط ١، ٢٠٠٠م.
١٨ – الجامع لأحكام القرآن، محمد بن احمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠٦م.

١٩ – الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، ط ١، ٢٠٠٦م.
٢٠ – الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، احمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق د. احمد الخراط، دار القلم – دمشق، ط ٢، ٢٠٠٣م.
٢١ – دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١، ٢٠٠١م.
٢٢ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الآلوسي، علق عليها محمد احمد الأمد وعمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ٢٠٠٠م.
٢٣ – شذا العرف في فن الصرف، احمد الحملاوي، ضبطه وعلق عليه علاء الدين عطية، مكتبة ابن عطية، ط ٧، ٢٠٠٧م.
٢٤ – شرح ابن عقيل، عبد الله بن عقيل الهمداني المصري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.
٢٥ – شرح أسماء الله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن علي بن وهب القحطاني، راجعه د. عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، دار ابن حزم – بيروت، ٢٠٠٣م.
٢٦ – شرح التصريح عَلَىٰ التوضيح، خالد بن عبد الله الأزهري، تحقيق محمد باسل عيون السود دار الكتب العلمية،

ط ٢، ٢٠٠٦م.
٢٧ – شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفراف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ٢٠٠٥م.
٢٨ – شرح المفصل ابن يعيش الطبعة المصرية.
٢٩ – الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، اسماعيل بن حماد الجوهرة، تحقيق: احمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط ٢، بيروت، ١٩٧٩ م.
٣٠ – الفعل زمانه وأبنيته، د. إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م.
٣١ – مجمع البحرين، فخر الدين الطريحي، تحقيق احمد الحسني، مؤسسة التاريخ العربي – بيروت، ط ٢، ٢٠٠٨م.
٣٢ – مجموعة رسائل العلامة الطباطبائي، محمد حسين الطباطبائي، تحقيق صباح الربيعي، مكتبة فدك – قم، ط ١، ٢٠٠٧م.
٣٣ – معاني الأبنية في العربية، د. فاضل صالح السامرائي، ساعدت جامعة بغداد عَلَى نشره، ط ١، ١٩٨١م.
٣٤ – معاني القرآن وإعرابه، أبو اسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، شرح وتحقيق د. عبد الجليل عبده شلبي، خرج

أحاديثه علي جمال الدين محمد، دار الحديث – القاهرة، ٢٠٠٤م.
٣٥ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر نويد إسلام، ط ١، ١٤٢٥ هـ.
٣٦ – معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن احمد بن فارس، اعتنى به د. محمد عوض وفاطمة محمد، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ٢٠٠١م.
٣٧ – المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب
٣٨ – المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، قراه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمود بيجو، مطبعة الصباح – دمشق، ط ١، ١٩٩٩م.
٣٩ – ملاك التأويل القاطع بذوي الالحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أبو جعفر احمد بن إبراهيم الغرناطي، وضع حواشيه عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، ط ١، ٢٠٠٦م.
٤٠ – المنهج الجديد في تعليم الفلسفة، محمد تقي مصباح اليزدي، ترجمة محمد عبد المنعم الخاقاني، دار الكتب اللبنانية – بيروت.
٤١ – الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي – بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.

٤٢ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية ط ٣، ٢٠٠٦م.

٤٣ – نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين الرازي، تحقيق د. إبراهيم السامرائي ود. محمد بركات حمدي، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن ١٩٨٥م.